جزيرةُ شُقْر الأندلسيّة
(المكان والانسان)
في الأدب الأندلسيّ

للدكتور صلاح جرار
الجامعة الأردنية

مقدمة

الباعثُ على هذه الدراسة ، أنَّ جزيرةَ شُقْر ـ على ضيق مساحتها وبعدها عن قلب الأندلس ـ شهدت أيام الحكم الإسلامي نهضة أدبية وعلمية نشطة ، قلَّ أن تشهدها بقعة جغرافية مماثلة ، وقد نشأ بأرض تلك الجزيرة من أعلام الأدب والفكر الجمُّ الغفير ممّن شهِدَتْ مصادرُ التراث الأندلسيّ بشهرتهم ؛ فهي مسقط رأس ابن خفاجة وأبي المُطرِّف بن عميرة وأبي طالب عبد الجبار وابن مرج الكحل وغيرهم من صدور الأدباء الأندلسيّين . ولعلّ هذه الدراسة ، عن جزيرة شُقْر ، تعين على تفسير ذلك النشاط الأدبيّ والعلمي الملحوظ الذي شهدته أرضها ، وتسهم في الكشف عن بعض الظواهر الأدبيّة التي برزت في أعمال أدباء الجزيرة في الموضوعات والأساليب .

جزيرة شُقْر : الاسم والموقع والملامح الخاصة

أ ـ الاسم :

تختلفُ المصادر العربيّة في الصورة التي يُضْبَطُ بها اسم هذه الجزيرة ، فبعض هذه المصادر تجعله «شُقْر» بضم الشين وتسكين القاف[1] ، وبعضها تجعله شَقْر ، بفتح الشين وسكون القاف[2] ، وبعضها الآخر تجعله شُقَر ، بضم الشين وفتح القاف[3] . وورد اسم الجزيرة في كتاب المنّ بالإمامة لابن صاحب الصلاة

---

(١) وصفه ابن خلكان جزيرة شقر بقوله : «وشُقْر ـ بضم الشين المثلثة وسكون القاف والراء ـ وهي بُلَيْدة بين شاطبة وبلنسية . انظر : ابن خلكان ، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت٦٨١هـ/١٢٨٣م) ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ٨ج ، حقّقه الدكتور إحسان عبّاس ، دار صادر ، بيروت ، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م ، ج١ ، ص ٥٧ . وضبط صفيُّ الدين البغدادي اسم هذه الجزيرة بقوله : «جزيرة شُكْر بضم الشين المعجمة وسكون الكاف ، جزيرة في شرق الأندلس ، ويقال جزيرة شُقْر» انظر : صفيّ الدين البغدادي ، عبد المؤمن بن عبد الحق (ت٧٣٩هـ/١٣٣٨م) ، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ، ٣ج ، تحقيق وتعليق : علي محمد البجاوي ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٥٤ ـ ١٩٥٥ ، ج١ ص ٣٣٢ . ومن المصادر التي ضبطت الاسم بضم الشين وسكون القاف رايات المبرّزين لابن سعيد المغربي ، والمغرب في حلى المغرب لابن سعيد أيضاً (انظر : ابن سعيد المغربي ، علي بن موسى (ت٦٨٥هـ/١٢٨٨م) ، رايات المبرّزين وغايات المميزين ، تحقيق الدكتور النعمان عبد المتعال القاضي ، لجنة إحياء التراث الإسلامي ، القاهرة ، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م ، ص ١٢١ ؛ ابن سعيد المغربي ، المُغْرب في حُلى المَغْرب ٢ج ، حققه وعلق عليه الدكتور شوقي ضيف ، دار المعارف ، مصر ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٤ ، ج٢ ص ٣٦٣ وانظر كذلك : E.Levi-Provençal: La «Description de L'Espagne» d'Ahmad al-Razi, Al-ANDALUS, Vol. XVIII, 1953, p.71. والموسوعة الإسلامية ، مادة : DJAZĪRAT SHUKR .

(٢) انظر : ياقوت الحموي ، شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله البغدادي (ت٦٢٦هـ/١٢٢٩م) ، معجم البلدان ٥ج ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ج٣ ص ٣٥٤ ؛ الفيروز أبادي ، القاموس المحيط مادة (شقر) ؛ الزبيدي ، تاج العروس ، مادة (شقر) ؛ ابن دِحْية الكلبيّ ، ذو النسبين أبو الخطاب عمر بن حسن (ت ٦٣٣هـ/١٢٣٦م) ، المُطْرِب من أشعار أهل المغرب ، تحقيق : الأستاذ ابراهيم الأبياري والدكتور حامد عبد الحميد والدكتور أحمد أحمد بدوي ، دار العلم للجميع ، بيروت ١٩٥٥ ، ص١١١ .

(٣) انظر : ابن الدلائي ، أحمد بن عمر بن أنس العذري (ت٤٧٨هـ/١٠٨٨م) ترصيع الأخبار وتنويع الآثار ، تحقيق الدكتور عبد العزيز الأهواني ، معهد الدراسات الإسلامية ، مدريد ، ١٩٦٥ ، ص ١٧ .

«شوقر»[٤] . وورد الاسم بالقاف والكاف في مُعْجَم البلدان لياقوت ، ومراصد الاطّلاع لصفيّ الدين البغدادي[٥] . ويسمّيها عبدُ الواحد المراكشيّ في كتاب المعجب «جزيرة الشُقْر»[٦] .

ويسمّي ابن خفاجة في بعض شعره نهر شقر الذي تُنْتَسبُ إليه الجزيرة بالمُشَقَّر ، فمن ذلك قوله من قصيدة :[٧]

وأَنْـدُبُ عَهْـداً بـالمُشَقَّـرِ سـالفـاً وظِـلَّ غمامٍ للصِبـا قـد تَفَشَّـعـا

وقوله من قصيدة أخرى :[٨]

وَتَنْـدُبُ عَهْـداً قـد تَقَضّى بـرامـةٍ
ووكـراً بـأكنـافِ المُـشَقَّـرِ خـالـيـا

ونجد هذه التسمية أيضاً في شعر أبي المطرّف بن عميرة ـ من أدباء جزيرة شُقْر ـ إذ يقول في بيت من إحدى قصائده :[٩]

ويَنْـدُبُ عهـداً بـالـمُشَـقَّـرِ فـاللّوى
وأَيْـنَ اللّوى منـه وأَيْنَ الـمُشَـقَّـرُ؟!

وقد يعود الاختلاف في صورة اسم الجزيرة إلى اجتهادات المحقّقين والناشرين للمصادر التي ورد هذا الاسم في صفحاتها ، وربما كانت هناك عواملُ أخرى لهذا الاختلاف مثل الاختلاف في الاسمين اللاتينيّ والإسبانيّ للجزيرة ، إذ انّ اسمها في

---

(٤) ابن صاحب الصلاة ، عبد الملك (ت ٥٩٤هـ/١٢٠٠م) ، تاريخ المنّ بالإمامة على المستضعفين (السفر الثاني) ، تحقيق عبد الهادي التازي ، دار الأندلس للطباعة والنشر ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٣٨٣هـ/١٩٦٤م ، ص ٤٠٦ ، ٤٩١ .

(٥) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ح٣ ص ٣٥٧ ؛ صفيّ الدين البغدادي ، مراصد الاطلاع ح١ ص ٣٣٢ .

(٦) عبد الواحد المراكشي ، محيي الدين عبد الواحد بن علي التميمي (ت بعد ٦٢١هـ/١٢٢٤م) ، المُعْجب في تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي ، دار الكتاب ، الدار البيضاء ، المغرب ، الطبعة السابعة ١٩٧٨ ، ص ٥١٨ .

(٧) ابن خفاجة ، أبو اسحق ابراهيم بن أبي الفتح (ت٥٣٣هـ/١١٣٨م) ، ديوان ابن خفاجة ، تحقيق الدكتور سيّد غازي ، منشأة المعارف ، الاسكندرية ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٩ ، ص ٥٦ .

(٨) المصدر السابق ، ص ٢٠٠ .

(٩) محمد بن شريفة ، أبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومي حياته وآثاره ، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي ، جامعة محمد الخامس ، الرباط ، ١٩٦٦ ، ص ٢٣١ .

اللسانِ اللاتينيّ Sucro واسمها في الإسبانيةِ Jucar .[١٠]

أما تسميتُها بالمُشَقَّر في شعر ابن خفاجة وابن عميرة ، ابنَيْ جزيرةِ شُقْر ، فهي من قبيلِ التمثُّل للشعر العربي القديم في ذكر الأماكن المشرقيّة ومنها المُشَقَّر .[١١] وفي تسميةِ جزيرة شقر بالمشقَّر يمتزجُ الحنين إلى الشرق بالحنينِ إلى أرض شُقْر ، ويمتزج الماضي القريب بالماضي البعيد ، وتلتقي شُقْر بالمُشَقَّر بحروفهما وبايحاءاتهما وبإشعاعهما في وجدان أديبَيْ جزيرة شقر .

وإذا كان الخلاف على التسمية بين شَقْر (بفتح الشين) وشُقْر (بضمّ الشين) فإننا نرجّح ضبطها بضمّ الشين للأسباب التالية :

١ . أنّ هذا الاختلاف قد وقع فقط في المصادر غير الأندلسية ، بينما تكادُ المصادر الأندلسية تُجْمِعُ على جعلها بضمّ الشين .
٢ . أنّ الاسمين اللاتيني والاسباني للجزيرة يبدءان بحركة الضم .
٣ . أنّها وردت في أدب ابنِ خفاجة وابنِ عميرة وغيرِهما من أدباء جزيرة شُقْر نفسِها بالضمّ .

ومتى انحصر الخلاف على التسمية بين شُقْر (بتسكين القاف) وشُقَر (بفتح القاف) فإنّنا نحتكم إلى الشعر الذي وقع فيه اسم هذه الجزيرة ، لأنّ الإخلال في ضبط الاسم في أيّ بيت وقع فيه يُخِلُّ بالوزن الشعريّ للبيت ، وقد ورد اسم جزيرة شُقْر بتسكين القاف في جميع الأبيات الشعرية التي ورد فيها هذا الاسم ، فقد ورد غيرَ مرة في شعر ابن خفاجة ، فمن ذلك قوله في بيتٍ من إحدى قصائده :[١٢]

بَيْنَ شُقْرٍ ومُلْتَقَى نَهْرَيْها حَيْثُ أَلْقَتْ بنا الأماني عَصاها

---

(١٠) الموسوعة الاسلامية ، مادة : AJAZĪRAT SHUKR .

(١١) يختلف الجغرافيّون المسلمون في تحديد مكان المشقر ، فيجعلُها الحميريّ في «الروض المعطار» قصراً بالبحرين ، وقيل هي مدينة هجر ، وقال ابن الأعْرابي إنها مدينة عظيمة في وسطها قلعة ، وذكرها امرؤ القيس في شعره إذ يقول : دُوَيْنَ الصفا اللائي يلين المُشَقَّرا (انظر : الحميري ، محمد بن عبد المنعم ، كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار ، حقّقه الدكتور إحسان عبّاس ، مكتبة لبنان ، بيروت ، ١٩٧٥ ، ص ٥٦٠) .

(١٢) ديوان ابن خفاجة ص ٣٦٤ ، الروض المعطار ص ٣٤٩ .

وقوله مشيراً إلى أصدقاء له :[١٣]

قَدِ ٱنْتَظَمُوا في نَحْرِ شُقْرٍ قِلادةً
وكلُّهُمُ وُسْطى فناهيك مِنْ عِقْدِ

وقوله متحدّثاً عن إحدى قصائده :[١٤]

نَشَأَتْ وَشُقْرٌ دارُها وكأنّما
وَرَدَتْكَ زائِرةً مِنَ الزَوْراءِ

وقوله من قصيدة :[١٥]

وَحَنَّ إلى شُقْرٍ فَخَفَّ على السُرى
يَخُوضُ خَليجاً أَوْ يَجُوبُ كَثِيبا

ووقع اسم نهر شقر في شعر أبي المطرف بن عميرة ، فمن ذلك قوله :[١٦]

وَكَيْفَ بِشُقْرٍ أَوْ بِزُرْقَةِ مائِهِ
وفيه لشُقْرٍ أوْ لِزُرْقٍ شَوارِعُ

وقوله :[١٧]

وَدُونَ شُقْرٍ وَدُونَ زُرْقَتِهِ أَزْرَقُ يَحْكي قَناهُ أَوْ أَشْقَر

وورد الاسم أيضاً في شعرٍ لأبي القاسم عبد الرحمن بن خرشوش[١٨] ، من شعراء جزيرة شقر ، حيث يقول :[١٩]

---

(١٣) ديوان ابن خفاجة ص ٣٤٧ .
(١٤) المصدر السابق ص ٢٧٥ .
(١٥) المصدر السابق ص ١١٢ .
(١٦) الروض المعطار ص ٣٥٠ .
(١٧) المصدر السابق ص ٣٥٠ .
(١٨) من أعيان جزيرة شقر في زمن المرابطين (المغرب في حلى المغرب ٢/٣٦٦؛ رايات المبرزين ١٢٢) .
(١٩) ورد البيت في رايات المبرزين ص ١٢٣ ، لكنه ورد في معجم البلدان لياقوت الحموي (٣/٣٥٥) منسوباً إلى أبي عبدالله محمد بن عائشة ، وكذلك أورده الفتح بن خاقان في مطمح الأنفس (الفتح بن خاقان ، أبو النصر الفتح بن محمد بن عبيد الله بن خاقان بن عبدالله القيسي الإشبيلي ت٥٢٩هـ/١١٣٥م ، مطمح الأنفس ومسرح التأنس في مُلَح أهل الأندلس ، دراسة وتحقيق : محمد علي شوابكة ، دار عمّار ومؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، ص ٣٤٩) .

أيا راكِباً يَسْتَعْجِلُ الخَطْوَ قاصِداً
ألا عُجْ بِشُقْرٍ رائِحاً ومُغادِيا

إلى غير ذلك من الأمثلة .

وتُعْرَفُ هذه الجزيرة بعدة أسماء ، هي : شُقْر، وجزيرة شُقْر ، ومدينة شُقْر[٢٠] والجزيرة[٢١] .

وهناك بعض الدلائل التي توحي بأن اسم «الجزيرة» هو واحد من الأسماء الرسميّة كثيرة الاستخدام للبقعة الجغرافية موضع البحث ، وفيما يلي بعض هذه الأدلّة :

١ . أن الجغرافيين دأبوا على إطلاق اسم «الجزيرة» على المناطق المحاطة بمياه الأنهار[٢٢] ، كما هو الشأن مع الجزيرة الفراتية وأرض الجزيرة في السودان .

٢ . أن المصادر الأندلسية استعملت هذه التسمية كثيراً للإشارة إلى جزيرة شُقْر ، ومن ذلك ما نصّ عليه صاحبُ فرحة الأنفس في قوله : «ومدينة الجزيرة ، ومبتناها على جزيرة شِقْر»[٢٣] ، وما نصّ عليه ابن حيَّان في كتاب المقتبس بقوله : «ثم افْتُتِحَتْ مدينة الجزيرة المنسوبة إلى شُقْر من كورة بلنسية»[٢٤] ،

---

(٢٠) ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد الحضرمي المغربي (ت٨٠٨هـ/١٤٠٦م) ، تاريخ ابن خلدون المسمّى بكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، ٧ج ، دار الطباعة الخديوية ، بولاق ، مصر ، ١٢٨٤هـ ، ج٤ ص ١٦٦ ؛ وانظر أيضاً : الدكتور لطفي عبد البديع ، قطعة من كتاب فرحة الأنفس لابن غالب عن كُوَر الأندلس ومدنها بعد الأربعمائة ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، مجلد ١ ج٢ ، القاهرة ، ١٩٥٥ ، ص ٢٨٥ .

(٢١) ابن الأبّار ، أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن أبي بكر القضاعيّ (ت٦٥٨هـ/١٢٦٠م) الحلّة السيَراء ٢ج ، حققه وعلق حواشيه الدكتور حسين مؤنس ، الشركة العربية للطباعة والنشر ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٦٣ ، ج٢ ص٢٦٧ (الحاشية) .

(٢٢) انظر : أبو عبيد البكري ، عبدالله بن عبد العزيز الأندلسي (ت٤٨٧هـ/١٠٩٤م) ، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ٢ج ، تحقيق : مصطفى السقا ، عالم الكتب ، بيروت ، ج١ ص ٣٨١ .

(٢٣) قطعة من كتاب فرحة الأنفس ص ٢٨٥ .

(٢٤) ابن حيّان القرطبي ، أبو مروان حيّان بن خلف (ت٤٦٩هـ/١٠٧٦م) ، المقتبس في أخبار بلد الأندلس ، نشره : ب . شالميتا ، ف . كورينطي ، م . صبح ، المعهد الاسباني العربي للثقافة ، مدريد ، وكلية الآداب/الرباط ، ١٩٧٩ ج٥ ص ٢٣٨ .

واكتفى ابنُ سعيد المغربي بتسميتها بالجزيرة في موضع من كتابه «القدح المعلّى»[٢٥] .

٣ . ورد اسمها على هذه الصورة «الجزيرة» في شعر عدد من شعرائها مثل ابن خفاجة[٢٦] وابن مرج الكحل[٢٧] وأبي عامر محمد بن الأصيلي[٢٨] .

٤ . أن الاسم الرسمي الحالي لتلك المنطقة في الإسبانية هو Alcira أو Alzira وهو مأخوذ من كلمة «الجزيرة» بالعربية .

أما كلمة Jucar فهي اسمٌ للنهر الذي تُنْسَبُ إليه الجزيرة ، ومع ذلك لا نجد في الإسبانية ترجمة حرفية لعبارة «جزيرة شقر» ولذلك لا يقال Alcira de Jucar على سبيل المثال ، فكلمة Alcira تعني شيئاً غير الذي تعنيه كلمة Jucar .

ويبدو لي أنّ الأندلسيين زادوا كلمة شُقْر على الجزيرة تمييزاً لها عن الجزيرة الخضراء أو عن جزيرة الأندلس ، وأصبح اسمها بمرورِ الزمن ـ على صعيد التعامل الشعبيّ فقط ـ جزيرة شُقْر .

---

(٢٥) انظر : ابن سعيد المغربي ، أبو الحسن عليّ بن موسى (ت٦٨٥هـ/١٢٨٨م) اختصار القدح المعلّى في التاريخ المحلّى (اختصره أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن خليل) ، تحقيق : ابراهيم الأبياري ، إدارة إحياء التراث ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، ص ٥٥ (السطر الأول) .

(٢٦) انظر ديوان ابن خفاجة : الصفحات ٦٦ ، ١٢٨ ، ٢٩٠ ، ٣٠٨ ، ٣٤٥ .

(٢٧) هو أبو عبدالله محمد بن إدريس المعروف بمرج كُحْل من مشاهير شعراء جزيرة شقر ، شبهه ابنُ سعيد المغربي بالوأواء الدمشقي ، وله شعر في الغزل والمدح ووصف الطبيعة ، وكانت وفاته سنة ٦٣٤هـ/١٢٣٧م . (أنظر ترجمته في : رايات المبرزين ص ١٢٣ ؛ المغرب في حلى المغرب ٢/٣٧٣ ؛ لسان الدين بن الخطيب ، أبو عبدالله محمد بن عبدالله السلماني (ت٧٧٦هـ/١٣٧٥م) ، الإحاطة في أخبار غرناطة ٤ج ، تحقيق محمد عبدالله عنان ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٣ ـ ١٩٧٧ ، ج٢ ص ٣٤٣ ؛ الرعيني ، أبو الحسن علي بن محمد بن علي الاشبيلي (ت٦٦٦هـ/١٢٦٩م) ، برنامج شيوخ الرعيني ، حققه : ابراهيم شبوح ، مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم ، دمشق ، ١٣٨١هـ/١٩٦٢م ، ص ٢٠٨) .

أنظر قوله :

أَبَتْ نَفْسي هوىً إلاّ شِريشاً ويا بُعْدَ الجزيرةِ مِنْ شريشِ

(برنامج شيوخ الرعيني ص ١٠١) .

(٢٨) يقول في شكواه من رؤساء جزيرة شقر :

حللتُ الجزيرةَ سُحْقاً لها كأنّي حَلَلْتُ بسردانية

(انظر : العماد الأصفهاني ، أبو عبدالله محمّد بن محمّد (ت٥٩٧هـ/١٢٠٠م) ، خريدة القصر وجريدة العصر ، القسم الرابع ٢ج ، تحقيق عمر الدسوقي وعلي عبد العظيم ، دار نهضة مصر ، ١٩٦٤ ، ج٢ ص ٢٣٤) .

ب ـ الموقع :

تنسب الجزيرة إلى نهر شقر الذي ينبع من المنطقة الجبلية الواقعة شمال شرق مدينة كونكة Cuenca ويصب في البحر الأبيض المتوسط جنوبي مدينة بلنسية ، وتقع جزيرة شقر بين فرعين لهذا النهر ينفصلان ثم يلتقيان قبيل مصبّه[٢٩] .

وعلى ذلك فهي ليست جزيرة بحرية وإنما جزيرة نهرية ، ولذلك وصفها عبد الواحد المراكشي في كتاب المعجب بقوله «وسُمّيت جزيرة لأنها في وسط نهر عظيم قد حفَّ بها من جميع جهاتها فلا طريق عليها إلّا على القنطرة»[٣٠] ، ووصفها ابن سعيد المغربي في كتاب رايات المبرّزين بقوله «ليست بجزيرة في البحر وإنما نهرها أحدق بها»[٣١] ، كما وصفها ابن دِحية في كتاب المطرب قائلاً «وهي جزيرة قد أحدق النهر بها كما أحدق بحدقةٍ شفر»[٣٢] .

ولهذا السبب لم يكن لها طريق بريّ ، وبخاصّة عند فيضان النهر ، يقول صاحب الروض المعطار في حديثه عن جزيرة شُقْر إنه قد «أحاط بها الوادي ، والمدخلُ إليها في الشتاء على المراكب ، وفي الصيف على مخاضة»[٣٣] ، وجاء في كتاب ترصيع الأخبار في وصف الجزيرة «وهي جزيرة قد أحاط بها الوادي من جميع جهاتها ولم يبق لها إلا موضع لطيف يُدْخَلُ منه إلى هذه الجزيرة ، قد صُنِعَ فيه حفير ، وعليها مما يلي ذلك سور ، وباب يُصْعَدُ إليه على درج»[٣٤] . وفي رسالة بعث بها ابن خفاجة إلى صديقه أبي اسحق بن صواب بالمغرب يقدّم ابن خفاجة سبب انقطاعه عن مراسلة صديقه قائلاً ـ « . . . ومما أخلَّ بعهد المطالعة أن الجزيرة ـ حرسها الله ـ بحيث لا يُسافَر عنها ولا يُوَردُ عليها»[٣٥] .

وتتبع جزيرة شقر لمديرية بلنسية في شرق الأندلس وتبعد عنها سبعة وثلاثين

---

(٢٩) الموسوعة الإسلامية ، مادة : DJAZĪRAT SHUKR

(٣٠) المعجب ص ٥١٨ .

(٣١) رايات المبرزين ص ١٢١ .

(٣٢) المطرب ص ١١١ ، وانظر أيضاً وفيات الأعيان لابن خلكان ٥٧/١ .

(٣٣) الروض المعطار/محمد عبد المنعم الحميري ص ٣٤٩ .

(٣٤) ترصيع الأخبار ص ١٩ .

(٣٥) ديوان ابن خفاجة ص ٦٦ .

كيلومتراً إلى الجنوب[٣٦] ، وتقع في منتصف رقعة طبيعية تعرف بـ «ريبيرا» Ribera تشمل الجزء الأسفل من وادي شقر وتمتد من شاطبة (Jativa) جنوباً إلى قطروجة (Catarroja) شمالاً ، ومن البحر الأبيض المتوسط شرقاً وحتى نهر كارثير (Carcer) غرباً[٣٧] .

وتقع جزيرة شقر على قارعة الطريق إلى مُرْسية في الجنوب[٣٨] ، ومن جزيرة شقر إلى شاطبة جنوباً اثنا عشر ميلاً[٣٩] ، وعلى ذلك فإنها تقع بين بلنسية في الشمال وشاطبة في الجنوب[٤٠] .

ويجعل الإدريسي جزيرة شقر تابعة لإقليم أرغيرة[٤١] .

ووقوع الجزيرة على نهر شقر[٤٢] ، جعل منها طريقاً للبضائع التي تمرّ عبر النهر إلى البحر الأبيض المتوسط ، ويُفْهَمُ ذلك من حديث الشريف الإدريسي عن حصن قلصة الواقع على نهر شقر قبيل الجزيرة ، إذ يقول «وقلصة حصن منيع تتصّل به أجبُلٌ كثيرة بها شجر الصنوبر الكثير ويُقطع بها الخشب ويُلْقىٰ في الماء ويُحمل إلى دانية وإلى بلنسية في البحر ، وذلك أنها تسير في النهر من قلصة إلى جزيرة شقر ، ومن جزيرة شقر إلى حصن قلبيرة ، وتفرّغ هناك على البحر ، فتُملأ منها المراكب وتُحْمَل

---

(٣٦) في الروض المعطار (ص ٣٤٩) وصفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس للشريف الإدريسي (ص ١٩٢) أنها تبعد ثمانية عشر ميلاً جنوب بلنسية (الشريف الإدريسي ، أبو عبدالله محمد بن محمد الصقلي (ت٥٦٠هـ/١١٦٥م) ، صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الأفاق ، مطبع بريل ، ليدن ، ١٩٦٨) .

(٣٧) الموسوعة الاسلامية : مادة DJAZIRAT SHUKR

(٣٨) صفة المغرب والسودان/الشريف الادريسي ص ١٩٢ .

(٣٩) المصدر السابق ص ١٩٢ ، ترصيع الأخبار ص ١٩ .

(٤٠) المعجب للمراكشي ص ٥١٨ .

(٤١) صفة المغرب والسودان للشريف الادريسي ص ١٧٥ .

(٤٢) لمزيد من المعلومات عن نهر شقر والمدن الواقعة عليه أنظر :
ابن القطان ، أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الملك الفاسي (ت٦٢٨هـ/١٢٣١م) ، نظم الجمان ح٦ ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة محمد الخامس ، الرباط ، ص ١١٠ ـ ١١١ ؛ صفة المغرب والسودان ، الشريف الإدريسي ص ١٩٢ وما بعدها ؛ المقتبس لابن حيان ٣٥٨/٥ ؛ قطعة من فرحة الأنفس ص ٢٨٦ .

إلى دانية ، فتُنشأ منها السفن الكبار والمراكبُ الصغار ، ويحمل إلى بلنسية منه ما كان عريضاً فيُصرف في الأبنية والديار»[٤٣]* .

جـ ـ طبيعة الجزيرة وملامحها الخاصة :

إنّ وقوع جزيرة شقر بين ذراعَيْ النهر الذي ضرب حولها نطاقاً خافقاً من الماء ، وإنّ انبساط رقعتها أمام جبل ريبيرا جعلها تتمتع بطبيعة متميزة وخصب وافر ، وتصفها المصادر والمراجع المختلفة بأنّها من أكثر بقاع الأندلس خصباً وجمالاً وخضرة[٤٤] .

وقد أشار الشريف الإدريسي إلى ذلك بقوله «وجزيرة شُقْر المذكورة حسنة البقاع كثيرة الأشجار والثمار والأنهار وبها ناسٌ وجلّة»[٤٥] ، ووقعت الإشارة إلى ذلك في ديوان ابن خفاجة إذ نجد ما نصّه في وصف تلك الجزيرة «وحسبُك من ماء سائح وطير صادح وبطاح عريضة وأرض أريضة»[٤٦] ، ويضيف ابن دِحْية في كتاب المطرب إلى هذا الوصف قوله «فلا ترى إلا انسجام الغمام ولا تسمع إلا ترنّم البلبل والحمام»[٤٧] . وجعلها ابنُ سعيد المغربي في كتاب «المُغرب في حلى المَغرب» ، عروسَ الأندلس وقال في صفتها : «عروس الأندلس المقلّدة من نهرها بسلك ، المتلفّعة من جنانها بسندس ، روض بسّام ، ونهر كالحسام ، وبلبل وحمام ، ومنظر يحثُّ على حسو المدام كما قال حسنتها أبو اسحق بن خفاجة :

---

(٤٣) صفة المغرب والسودان/الشريف الإدريسي ص ١٩٥ .

(*) للمزيد من المعلومات عن جغرافية جزيرة شقر أنظر :

الأمير شكيب ارسلان ، الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية ٣ج ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ج٣ ص ٢٢٩ ـ ٢٢٣ ؛

A.Huici Miranda, «DJAZIRAT SHUKR» art. In Encyclopaedia of Islam.

(٤٤) الموسوعة الاسلامية ، مادة : JDAZĪRAT SHUKR

(٤٥) صفة المغرب وأرض السودان/الشريف الإدريسي ص ١٩٢ ، وورد هذا الوصف ذاته في الروض المعطار ص ٣٤٩ .

(٤٦) ديوان ابن خفاجة ص ٢٩٠ ، المطرب لابن دحية ص ١١١ .

(٤٧) المطرب لابن دحية ص ١١١ .

سُقْيا لها من بطاحِ أُنْس ودَوْحِ حُسْنٍ بها مُطِلِّ
فما ترى غَيْرَ وَجْهِ نَهْرٍ أَطَلَّ فيه عِذارُ ظِلِّ»[٤٨]

وكان أبو عبدالله محمّد بن عائشة الامير المرابطي ـ من قادة المرابطين ـ منرماً بتلك الجزيرة ولا يطيب له قضاء أوقات فراغه إلا فيها . ويفسّر الفتح بن خاقان في كتابه «مطمح الأنفس» ذلك بقوله «فإنّها صحيحة الهواء ، قليلة الأدواء ، خضلة العشب والأزاهر ، فقد أحاط بها نهرها كما تحيط بالمعاصم الأساور ، والأيك قد نشرت ذوائبها على صفيحه ، والروض قد عطّر جوانبه بريحه»[٤٩] . ويُزْرَعُ في جزيرة جزيرة شُقْر في هذه الأيّام البرتقال والأرزّ ونباتاتُ الزينة[٥٠] .

ومن معالم الجزيرة في أيّام المسلمين حسبما ذكرته المصادُر العربيّة .

القنطرة التي أنشئت على نهر شقر ليعبر منها الناس إلى الجزيرة ، وكان الناس يدخلون من باب ويصعدون على تلك القنطرة أو الجسر على درج[٥١] .

وباب الزخارف الذي ذكره ابن خفاجة في شعره[٥٢] ، والمرجُ والكنيسةُ والشطُّ وهي أيضاً من المواضع التي ذكرها ابن خفاجة في شعره[٥٣] .

ويذكر الحميري في «الروض المعطار» أنّه كان في جزيرة شُقْر «جامعٌ ومساجدُ وفنادقُ وأسواق»[٥٤] وورد ذكر الجامع في كتب التراجم[٥٥] .

---

(٤٨) المغرب في حلى المغرب ٢/٣٦٣ .

(٤٩) مطمح الانفس ص ٣٤٨ ، وانظر أيضا : ابن بسّام ، أبو الحسن عليّ بن بسام الشنتريني (ت ٥٤٢ هـ/١٤٨م) ، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة (٤ مجلدات في ثمانية أقسام) ، تحقيق : الدكتور إحسان عبّاس ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٣٩٩ هـ/١٩٧٩ م ، م٣ ق ٢ ص ٨٨٩ ، المقّري ، أحمد بن محمد التلمساني (ت١٠٤١ هـ/١٦٣٢م) ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ٨ ج ، حققه الدكتور إحسان عبّاس ، دار صادر ، بيروت ١٣٨٨ هـ/١٩٦٨ م ح ٤ ص ٥٤ .

(٥٠) الموسوعة الاسلامية ، مادة : DJAZĪRAT SHUḲR

(٥١) ترصيع الأخبار ص ١٩ ، المعجب ص ٥١٨ .

(٥٢) ديوان ابن خفاجة ص ٢١٠ .

(٥٣) ديوان ابن خفاجة ص ٣٦٥ ، الروض المعطار ص ٣٥٠ .

(٥٤) الروض المعطار ص ٣٤٩ .

(٥٥) انظر : ابن عبد الملك المراكشي ، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك الانصاري الاوسي (ت٧٠٣/١٣٠٦م) ، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة (السفر السادس) ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، الطبعة الاولى ، ١٩٧٣ ص ١٠٤ ؛ نفح الطيب ٢/١٦٠ .

ومن معالم جزيرة شُقْر التي جرى الحفاظُ عليها زمناً منزل شاعرها ابن خفاجة وقبره ، وفي ذلك يقول ابن الأبّار في كتاب التكملة في معرض حديثه عن ابن خفاجة «ولم يزل قبره معروفاً بظاهر الجزيرة ومنزله بداخلها إلى أن ملكها الروم صلحاً وأخلوا أهلها في آخر سنة ٦٣٩هـ»[٥٦] ، وكذلك كان لها سور ذكره أبو عامر محمد بن الأصيلي في رسالة له[٥٧] ، وكان هذا السور يقع عند مدخلها وهو الذي أشار إليه صاحب ترصيع الأخبار بقوله ـ عند حديثه عن الجزيرة ـ «ولم يبق لها إلاّ موضع لطيف يُدْخَلُ منه إلى هذه الجزيرة قد صُنِعَ فيه حفير ، وعليها مما يلي ذلك الموضع سور وبابٌ يُصْعَدُ إليه على درج»[٥٨] .

وفي الموسوعة الإسلامية أن قنوات الري التي أنشأها خايمي الأول «Jaime 1» ملك أراغون «Aragon» الذي فتح جزيرة شقر في أواسط القرن الثالث عشر الميلادي/السابع الهجري ، أقيمت على أنقاضِ قنوات الريّ العربية والقوطية قبلها[٥٩] .

---

(٥٦) انظر : ابن الأبّار القضاعي ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر البلنسي (ت ٦٥٨هـ/١٢٦٠م) ، التكملة لكتاب الصلة ٢ ج ، نشره : عزت العطار الحسيني ، مكتبة الخانجي ، مصر ، ١٩٥٦ ، ح ١ ص ١٤٤ .

(٥٧) خريدة القصر ٢/٢٤٤ .

(٥٨) ترصيع الاخبار ص ١٩ .

(٥٩) الموسوعة الاسلامية ، مادة : DJZĪRAT SHUḲR

الأحداث التاريخية على أرض الجزيرة إبان العهد الإسلامي

ارتبط تاريخ جزيرة شقر بتاريخ شرق الأندلس (بلنسية وما جاورها) ، ولم تسجّل المصادر التاريخية أية أحداث هامة متصلة بهذه المنطقة حتى عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر[٦٠] .

فعندما ولي الناصرُ أمر الأندلس كانت البلادُ ـ كما يقول صاحب البيان المغرب ـ «جمرة تحتدم ناراً تضطرم شقاقاً ونفاقاً»[٦١] ، وكانت شرق الأندلس واحدة من تلك الجهات المخالفة ، وقد تولّى بنو أبي الجوشن كبر الثورة في جزيرة شقر ، وكانوا في نحو ستين رجلاً ، وفي سنة ٣١٦هـ نهض عبد الرحمن الناصر لإخماد تلك الثورة وتغلّب على بلنسية وشقر وغيرهما واستنزل الثائرين في جزيرة شقر من بني أبي الجوشن ونقلهم إلى قصر قرطبة وضرب رقابهم[٦٢] .

ويبدو أن أهل جزيرة شقر لم ينسوا ذلك للخلافة الأموية ، فما أن قامت الفتنة في عهد الخليفة هشام المؤيد حتى استقل مجاهد العامري ببلنسية ونواحيها ، ولما اجتاز الخليفة هشام على جزيرة شقر لم يأذن له العامريّون بدخولها[٦٣] ، وفي هذه الأثناء تتابع على مدينة بلنسية عدد من موالي العامريين مثل مبارك ومظفر ولبيب ومجاهد ، إلى أن بايع العامريّون المنصور عبد العزيز بن الناصر عبد الرحمن بن المنصور بن أبي عامر الذي استولى عليها وعلى شاطبة ومرسية وجزيرة شقر وغيرها سنة ٤٣٢هـ . وظل المنصور عليها حتى وفاته ببلنسية سنة ٤٥٢هـ[٦٤] .

---

(٦٠) للتعرّف على بعض الأحداث التاريخية التي وقعت في شرق الأندلس قبل عصر الخلافة الأموية انظر : ابن عذاري المراكشي ، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ٤ ج ، تحقيق ومراجعة : ج . س . كولان ، إ . ليفي بروفنسال ، دار الثقافة ، بيروت ، ح ٢ ص ٥٤ ـ ٥٥ ، ٥٧ ، ٧٠ ، ٩٠ .

(٦١) المصدر السابق ١٥٧/٢ .

(٦٢) المقتبس لابن حيّان ٢٣٧/٥ ـ ٢٣٨ ؛ البيان المغرب ١٩٧/٢ .

(٦٣) الذخيرة لابن بسام م٣ ق ١ ص ٥١٧ .

(٦٤) البيان المغرب ١٦٤/٣ ـ ١٦٥ ، ٢٣٩ ، ٣٠١ ـ ٣٠٢ .

وانظر أيضا : لسان الدين بن الخطيب ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله السلماني (ت ٧٧٦هـ/١٣٧٥م) ، أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام (أو تاريخ إسبانيا الإسلامية) تحقيق وتعليق : إ . ليفي بروفنسال ، دار المكشوف ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٥٦ ، ص ٢١٦ ـ ٢٢٦ .

وبويع بعده ابنه عبد الملك بن عبد العزيز ، فانهمك في شرابه ومجونه إلى أن خلعه صهره المأمون يحيى بن ذي النون ملك طليطلة سنة ٤٥٧هـ[٦٥] ، وجعل مكانه أبا عبدالله محمد بن عبد العزيز المعروف بروبش ، لكن ما إن غادر المأمون بلنسية متوجهاً إلى مملكته طليطلة حتى ثار ببلنسية أبو بكر محمد بن عبد العزيز بن المنصور بن أبي عامر واستولى عليها وعلى جزيرة شقر[٦٦] ، إلى أن توفي أوائل سنة ٤٧٨هـ[٦٧] .

وخلفه عليها ابنه أبو عمرو عثمان بن أبي بكر محمد بن عبد العزيز ، فلم يزل ملكاً عليها إلى أن سلّم القادر بن ذي النون طليطلة لألفُونسو السادس ، فجاء القادرُ إلى بلنسية فدخلها قسراً بمساعدة ألفونسو سنة ٤٧٨هـ[٦٨] وحكمها هي وجزيرة شقر[٦٩] . فسام القادر الناس خسفاً ، فثاروا عليه وبايعوا القاضي ابن جحاف[٧٠] ، فهرب القادر من قصره فطارده أهل بلنسية وقبضوا عليه وساقوه إلى ابن جحاف فأمر بقتله سنة ٤٨٥هـ ، واستولى على قصره وذخائره النفيسة[٧١] .

ولم يمض وقت طويل حتى حاصر السيد القمبيطور[٧٢] مدينة بلنسية أشد الحصار إلى أن دخلها سنة ٤٨٨ هـ وقام بقتل ابن جحّاف وحرق جثته[٧٣] .

وكانت جزيرة شقر ، قبل أن يستولي السيد القمبيطور على بلنسية ، تتعرّض هي وجاراتها من النواحي الواقعة جنوبي بلنسية لغارات متواصلة من السيد[٧٤] .

---

(٦٥) البيان المغرب ٣٠٣/٣ .

(٦٦) الذيل والتكملة ، السفر الخامس ، القسم الثاني ، ص ٥٩١ (في الترجمة لابي عبد الرحمن محمد بن أحمد بن اسحق بن طاهر) .

(٦٧) البيان المغرب ٣٠٤/٣ .

(٦٨) المصدر السابق ٣٠٤/٣ ، أعمال الاعلام ص ١٨٢ .

(٦٩) الخريدة ٢٤٣/٢ (في ترجمة أبي عامر محمد بن الأصيلي) .

(٧٠) أبو أحمد جعفر بن جحّاف بن عبد الله بن جعفر بن عبد الرحمن بن جحّاف بن يمن بن سعيد المعافري البلنسي (المقتول سنة ٤٨٨هـ) ، (البيان المغرب ٣٠٥/٣) .

(٧١) البيان المغرب ٣٠٥/٣ ، أعمال الأعلام ص ١٨٢ ، ٢٠٣ .

(٧٢) انظر كتاب : ملحمة السيد ، درسها وقدم لها وترجمها الدكتور الطاهر أحمد مكي ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٧٠ (ص ١٢٧ وما بعدها) .

(٧٣) البيان المغرب ٣٠٦/٣ ، ٤١/٤ ـ ٤٦ ، ١٤٩ ـ ١٥١ ؛ أعمال الاعلام ٢٠٢ ـ ٢٠٥ .

(٧٤) ملحمة السيد ص ٣٣٤ .

وبعد سقوط بلنسية أصبحت جزيرة شقر من النواحي الخاضعة للسيد القمبيطور ، فقد جاء في تاريخ الأندلس لابن الكردبوس أنه في سنة ٤٩٠ هـ نهض محمد بن عائشة المرابطي ـ قائد جيش يوسف بن تاشفين ـ إلى ناحية جزيرة شقر وذكر أنه يؤمّها ويقصدها ويقدمها ، فالتقى بجملة من جند القمبيطور فأوقع بهم وقتلهم أشر قتلة ، ولم يفلت إلا اليسير من تلك الحملة ، فلما وصل الفلّ إليه مات همّا وغمّا[٧٥] .

وعلى إثـر هذه الهزيمة التي ألحقها ابنُ عائشة بجيش القمبيطور تمكّن المرابطون من استعادة الجزيرة سنة ٤٩٠ هـ ، ومضوا بعدها يسعون لاسترجاع مدينة بلنسية الى أن نجح في ذلك القائد المرابطي أبو محمد مزدلي سنة ٤٩٥ هـ[٧٦] .

وغدت جزيرة شقر بعد تحريرها ولاية مرابطية ، يُعَيَّنُ المرابطون ولاتها ، وكان منهم أبو اسحق بن صواب ، وأبو عبد الله بن عائشة[٧٧] ، وكان هذان الواليان صديقين لشاعر الجزيرة أبي اسحق بن خفاجة ، وذلك ما تشير إليه الرسائل التي كان يوجّهها ابن خفاجة إليهما[٧٨] .

وكانت جزيرة شقر ـ في عصر المرابطين ـ متنزها يقضي فيه الولاة أوقات فراغهم كما هو مشهور عن أبي عبد الله محمد بن عائشة[٧٩] .

وعندما سقطت مدينة سرقسطة ونواح أخرى من شرق الاندلس سنة ٥١٢ هـ على يد الفونسو الاول ملك أراغون ، أصبحت جزيرة شقر وما حولها قاعدة ينطلق منها المدافعون عن تلك النواحي[٨٠] ، وقد هاجم ابن رذمير الجزيرة سنة ٥٢٠ هـ

---

(٧٥) انظر : تاريخ الاندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط ، نصان جديدان ، تحقيق : الدكتور أحمد مختار العبّادي ، معهد الدراسات الإسلامية ، مدريد ، ١٩٧١ ، ص ١٠٨ ـ ١٠٩ ؛ ملحمة السيد ص ٣٣٨ .

(٧٦) البيان المغرب ٣٠٦/٣ ، ٤١/٤ ـ ٤٢ ؛ تاريخ الاندلس لابن الكردبوس ص ١٠٩ ـ ١١٠ .

(٧٧) انظر ديوان ابن خفاجة ص ٦٦ .

(٧٨) المصدر السابق ، وليس غريبا أن نجد ابن خفاجة يقدّر هذين الزعيمين ويخلص الودّ لهما ، فإليهما يرجع الفضل في استرجاع بلده وحمايتها وهي الموطن الذي هام ابن خفاجة في عشقه بل هو الموطن الذي كان مبعث الشاعرية الفذة عنده .

(٧٩) الذخيرة م ٣ ق ٢ ص ٨٨٩ ؛ مطمح الانفس ص ٣٤٨ ؛ نفح الطيب ٥٤/٤ .

(٨٠) الفاسي ، علي بن أبي زرع ، الأنيس المطرب بروض القرطاس ، دار المنصور للطباعة والوراقة ، الرباط ، ١٩٧٣ ، ص ١٦٣ .

وسنة ٥٢٣ هـ وأوقع هزيمتين بالمرابطين[٨١] ، ولعل من الاسباب الرئيسية في هزيمة المرابطين أنهم كانوا منشغلين بمقاومة الدعوة الموحدية بالمغرب[٨٢] .

وفي أواخر عصر المرابطين نشبت ثورات عدّة في مدن الأندلس كان من بينها ثورة القاضي أبي مروان عبد الملك بن عبد العزيز في بلنسية وكانت ثورته سنة ٥٣٩ هـ وانتهت بسيطرته على المنطقة الممتدّة من بلنسية إلى شاطبة ، بما في ذلك جزيرة شقر ، إلى أن ثار عليه جنده سنة ٥٤٠ هـ[٨٣] .

واتفق أمر أهلِ بلنسية ومرسية وجميع شرق الأندلس على تقديم رجل من أعيان الجند اسمه عبد الرحمن بن عياض ، كان النصارى يخافون منه كثيرا ، فأقام بشرق الأندلس يحفظها ويدافع عنها إلى أن مات نتيجة جراح أصابته في فتنة نشبت بمرسية سنة ٥٤١ هـ[٨٤] .

وقام بعده بأمر شرق الأندلس محمد بن سعد بن مردنيش ، وكان خادما لابن عياض يحمل له السلاح ويتصرّف بين يديه في حوائجه[٨٥] وكان والده سعد صهرا لابن عياض[٨٦] .

وبذلك تصبح جزيرة شقر من الاراضي التابعة لسلطة محمد بن سعد بن مردنيش منذ سنة ٥٤٢ هـ[٨٧] ، إلى أن ظهرت دولة الموحدين بالمغرب وامتدّ سلطانها إلى الأندلس[٨٨] ، وإذ ذاك اصطدم ابن مردنيش بالموحّدين قرب غرناطة سنة ٥٦٠ هـ فوقعت عليه الهزيمة[٨٩] ، وتحالف مع النصارى[٩٠] ، وعند ذلك خاف أهلُ شُقْر على

---

(٨١) نظم الجمان لابن القطان ص ١٠٩ ـ ١١١ .

(٨٢) الانيس المطرب ص ١٧١ .

(٨٣) أعمال الأعلام ص ٢٥٦ ؛ العبر لابن خلدون ٤/١٦٥ (ويسميه ابن خلدون القاضي مروان بن عبد الله بن مروان بن خصاب وأنه ثار ببلنسية سنة ٥٣٧ هـ) .

(٨٤) المعجب ص ٣٠٥ .

(٨٥) المصدر السابق ص ٣٠٥ .

(٨٦) أعمال الأعلام ص ٢٥٩ ـ ٢٦٠ ؛ الإحاطة ٢/١٢١ .

(٨٧) الإحاطة ٢/١٢١ .

(٨٨) العبر لابن خلدون ٤/١٦٦ .

(٨٩) أعمال الأعلام ص ٢٦١ ـ ٢٦٢ ؛ الإحاطة ٢/١٣٧ .

(٩٠) الإحاطة ٢/١٢٢ وما بعدها ؛ أعمال الأعلام ص ٢٦١ ؛ الذيل والتكملة/ السفر الأول/ القسم الثاني /ص ٥٢٦ (في ترجمة : أحمد بن محمد بن هذيل) .

أنفسهم فخلعوا طاعة ابن مردنيش وبايعوا أبا بكر أحمد بن محمد بن جعفر بن سفيان المخزومي العابد من أهل جزيرة شقر فقام بأمر تلك البلاد ودعا للموحدين وذلك في سنة ٥٦٦ هـ[٩١] .

ويذكر صاحب كتاب «المنّ بالإمامة على المستضعفين» أنه في سنة ٥٦٥ هـ ثار أهلُ شقر على ابن مردنيش وقاموا على النصارى الذين كانوا فيها ، وأنهم اتّصلوا بالسيّد أبي حفص بن الخليفة أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن الموحّدي ، فوجّه اليهم واليا هو أبو أيوب بن هلال ، فوصل إلى جزيرة شقر وضبطها ، فنازله ابنُ مردنيش في جزيرة شقر[٩٢] .

وعندما قام أبو بكر بن سفيان المخزوميّ بثورته في جزيرة شقر ضد ابن مردنيش أواخر سنة ٥٦٦ هـ ، حاصره ابن مردنيش حصاراً شديداً وحاربه أمدا طويلا ، وفي ذلك نورد هذا النص من كتاب الحلة السِيَراء لابن الأبّار :[٩٣]

«فأنفذ اليه الرئيس أبو الحجاج يوسف بن سعد[٩٤] قائدا من كبار أصحابه في جملة من خيله ورسم له حصاره والتضييق عليه ، فبدأ بمنازلته منتصف شوال من سنة ست وستين وخمسمائة ، وأقام على ذلك إلى منتصف ذي الحجة ، وابن سفيان يقاومه ويقوم بتدبير بلده ، والأمداد تتلاحق في كلّ حين وتحدق به ، وابن سعد وأخوه أبو الحجاج قد اكتنفاه في الجموع الكثيفة ، حتّى خيف عن الوهن ، فاقتحم البلد ذو الوزارتين أبو أيوب بن هلال[٩٥] مقويا عزائم أهله ، وضامنا لهم الاستقلال بضبطه ، فتخلى ابن سفيان له عنه ، راضيا في الظاهر متبرما في الباطن ، وتولّى ابن هلال من المصابرة في تلك المحاصرة ، والمحاولة لتلك المصاولة ، ما أبقاه أثرا مشهورا ، وخبرا تداولته الألسن دهورا ، واعتلّ ابن سعد خلال ذلك فلحق بمرسية ، وألزم أخاه

---

(٩١) الحلة السِيَراء ٢/٢٦٨ ؛ الذيل والتكملة /السفر الأول/ القسم الاول ص ٤٠٥ ـ ٤٠٦ ؛ أعمال الأعلام ٢٦٢ ، التكملة لكتاب الصلة ١/٧٦ ؛ وانظر : البيذق ، أبو بكر بن علي الصنهاجي ، أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين ، دار المنصور للطباعة والوراقة ، الرباط ، ١٩٧١ ، ص ٨٨ .

(٩٢) المنّ بالإمامة ص ٤٠٥ ـ ٤٠٦ ، ص ٤٧٠ ـ ٤٧١ .

(٩٣) الحلة السيراء ٢/٢٦٨ .

(٩٤) شقيق محمد بن سعد بن مردنيش .

(٩٥) هو الذي أنفذه الموحّدون إلى جزيرة شقر بناء على طلب أهلها ، وقد سبق ذكره .

ملازمة البلد فتنفّس الخناق ثم انتعشت بوفاته الأرماق» .

وقد كان هذا الحصار طويلا ومشهورا ووصفته المصادر التاريخية بالمحاصرة «الطويلة المشهورة»[٩٦] . وقد ضاق أهل جزيرة شقر بالحصار فأنفذوا رسائل استصراخ إلى خليفة الموحدين آنذاك يوسف بن عبد المؤمن[٩٧] .

ويفهم من الروايات التاريخية التي وصفت هذا الحصار ، أنه بعد رجوع محمد ابن سعد بن مردنيش إلى مرسية ورفعه الحصار عن الجزيرة أقلع الموحّدون بدورهم عنها ، ثم إنّ ابن مردنيش عاد إلى حصارها من جديد ليُخرِج منها ابنَ هلال القائم بها ، واستدعى ابنُ مردنيش أخاه أبا الحجاج ليعينه على منازلتها ، فوصله وقصر به ، ثم إنّ أبا الحجاج تخلّى عن أخيه ابن سعد ، وبادر الى الموحّدين ، مما زاد في علة محمد بن سعد بن مردنيش ، فكرّ إلى مرسية ومات بها سنة ٥٦٧ هـ[٩٨] .

وبعد موت ابن مردنيش دانت جزيرةُ شقر وبلاد شرق الأندلس كلّها للخليفة أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بن عليّ الموحدي ، وقد أكرم الموحّدون أبا بكر بن سفيان المخزوميّ بسبب ثورته على ابن مردنيش وأصبح لابن سفيان «أثرة عند أبي يعقوب بن عبد المؤمن فمن بعده من عقبه والولاة من قبلهم ، اختصّ ابن سفيان هذا وبنوه بمعظمها»[٩٩] وأصبحت جزيرة شقر محلّ رعاية الموحّدين وعنايتهم ـ مثلما كانت أيّام المرابطين ـ وغدت قاعدة تنطلق منها الغارات على الإسبان في شمال الاندلس[١٠٠] .

أما بنو مردنيش فقد أصبحوا ـ بعد وفاة محمد بن سعد ـ من أنصار الخليفة الموحّدي وأصهاره ، وتزوّج الخليفةُ يوسف بن عبد المؤمن الموحّدي سة ٥٦٩ هـ

---

(٩٦) التكملة لكتاب الصلة ١/٧٦ ، الذيل والتكملة /السفر الاول/ القسم الاول ص ٤٠٦ .

(٩٧) انظر الأبيات التي كتبها أبو المطرّف محمد بن أبي بكر أحمد بن محمد بن جعفر بن سفيان المخزومي لهذه الغاية (الحلة السيراء ٢/٢٦٩) .

(٩٨) المنّ بالإمامة لابن صاحب الصلاة ص ٤٠٦ ، ٤٧١ ؛ الذيل والتكملة /السفر الاول القسم الاول ص ٤٠٦ ؛ التكملة لكتاب الصلة ١/٧٦ ؛ الأنيس المطرب ٢١١ ؛ أعمال الأعلام ٢٦٢ ، وفي كتاب المعجب للمراكشي (ص ٣٠٥) ، أن وفاة محمد بن سعد بن مردنيش كانت في سنة ٥٦٨هـ .

(٩٩) التكملة لكتاب الصلة ١/٧٦ ؛ الذيل والتكملة /السفر الاول/ القسم الاول ص ٤٠٦ .

(١٠٠) المنّ بالإمامة لابن صاحب الصلاة ٤٩١ (في الحديث عن غزوة أبي يعقوب الموحّدي سنة ٥٦٧هـ الى وبذة (Ubeda) .

من صفيّة بنت محمد بن سعد بن مردنيش وصنع لها مهرجانا عظيما[١٠١]

وتبعا لذلك أسند الخليفة الموحّدي ولاية بلنسية وجهاتها إلى أبي الحَجّاج يوسف بن سعد بن مردنيش ، وظلّ عليها إلى أن مات سنة ٥٨٢ هـ[١٠٢] ، وخلف جملة من الأبناء منهم : أبو الحملات مدافع ، وأبو الظفر غالب ، وأبو الحارث سبع ، وأبو سلطان عزيز ، وأبو ساكن عامر ، وأبو محمّد طلحة ، وكانوا جميعهم ولاة للموحّدين على نواحي شرقِ الأندلس حتى نهاية الحكم الموحّدي ، وكان رئيس جزيرة شقر من بين هؤلاء الأبناء أبو السلطان عزيز[١٠٣] .

* * *

وبعد وفاة الخليفة الموحّدي المستنصر سنة ٦٢٠ هـ ، قامت ثورات عدّة في جهات مختلفة من الأندلس ضدّ الموحّدين ، وعندها ثار بنو مردنيش على الموحّدين ببلنسية ، وتولّى كبر ذلك أبو جميل زيّان بن أبي الحملات مدافع بن يوسف بن سعد ، الذي ثار على أبي زيد عبد الرحمن بن يعقوب الموحّدي ، فاضطر الموحّدي إلى اللجوء الى اراغون Aragon ودخل أبو جميل بلنسية سنة ٦٢٦ هـ ودعا فيها للخليفة العباسيّ ببغداد[١٠٤] ، واختلف أبو جميل مع بني عمّه عزيز بن يوسف بن سعد بن مردنيش في جزيرة شُقْر فأطاعوا ابنَ هود[١٠٥] وأصبحت شُقْر في طاعة ابن هود .

وفي أثناء ذلك أخذ الأراغونيّون يتحرّشون ببلنسية ونازلوا مدينة أنيشة سنة ٦٣٤ هـ فخرج إليهم زيّان ومعه «أهل شاطبة وجزيرة شقر»[١٠٦] فكانت عليهم الواقعة العظيمة التي خسر فيها المسلمون كثيرا والتي عُرِفت بوقعة أنيشة[١٠٧] .

---

(١٠١) الأنيس المطرب ص ٢١٢ ؛ أعمال الاعلام ص ٢٧١ .

(١٠٢) أعمال الأعلام ص ٢٧١ - ٢٧٢ .

(١٠٣) المصدر السابق ص ٢٧٢ .

(١٠٤) أعمال الاعلام ص ٢٧٢ ، العبر لابن خلدون ١٦٧/٤ ، ١٦٨ .

(١٠٥) محمد بن يوسف بن هود الجذامي ، ثار على الموحّدين في آخر أيامهم في مرسية وغيرها (انظر : أعمال الأعلام ص ٢٧٧ - ٢٨٦) .

(١٠٦) العبر لابن خلدون ١٦٧/٤ .

(١٠٧) أعمال الأعلام ص ٢٧٢ ؛ العبر لابن خلدون ١٦٧/٤ .

وأخذ خايمي الثاني Jaime II ملك أراغون يزحف نحو بلنسية فاستولى عليها سنة ٦٣٦ هـ بعد سنة من الحصار[١٠٨] ، وعند ذلك خرج زيّان إلى جزيرة شُقْر وأقام بدعوة الامير أبي زكريا الحفصي في تونس وبعث إليه ببيعتها مع أبي عبد الله محمد بن الأبّار القضاعي البلنسي الذي وصل إلى تونس وأنشد قصيدته المشهورة :

أدْرِكْ بِخَيْلِكَ خيلَ الله أَنْدَلُسا إنَّ السبيلَ إلى مَنْجاتِها دَرَسا[١٠٩]

إلّا أنّ أبا زكرّيا لم يكد يرسل نجداته حتى كانت بلنسية قد سقطت وتلاها بعد ذلك سقوط النواحي التابعة لها في شرق الأندلس .

أما جزيرة شُقْر فقد سقطت في يد خايمي الثاني في آخر سنة ٦٣٩ هـ صُلْحا وأُخْرِجَ أهلُها منها[١١٠] .

وفي حاشية الحلّة السِيَراء أن جزيرة شُقْر سقطت سنة ٦٤٣ هـ /١٢٤٥ م[١١١] ، مع أن المحقّق يذكر في حاشيةٍ أُخرى[١١٢] أنّها سقطت سنة ٦٤٠هـ /١٢٤٢م .

وفي سنة ١٦٠٩م قامت ثورة كبيرة في تلك الجزيرة طُرِدَ المسلمون على إثْرِها[١١٣] .

---

(١٠٨) أعمال الأعلام ص ٢٧٣ ؛ العبر لابن خلدون ١٦٧/٤ ؛ الروض المعطار ص ٩٧ ـ ١٠٠ ؛ الذيل والتكملة /السفر الاول/ القسم الثاني /ص ٤٧٤ .

(١٠٩) العبر ١٦٧/٤ ، أعمال الاعلام ص ٢٧٣ .

(١١٠) التكملة ١٤٤/١ (في الترجمة لابن خفاجة) ؛ نفح الطيب ٤٧٢/٤ ؛ الموسوعة الاسلامية (جزيرة شقر) .

(١١١) الحلة السيراء ٣٠٦/٢ .

(١١٢) الحلة السيراء ٢٦٧/٢ .

(١١٣) المصدر السابق (الحاشية) ٢/ص ٢٦٧ .

جزيرةُ شُقْر في الأدب الأندلسيّ

نالت جزيرة شقر من أدباء الاندلس ـ مثلما نالت من سلاطينها ـ نصيباً وافراً من الاهتمام قلّما نالته مدينة أُخرى من مدن الاندلس ، ولم يصدر هذا الاهتمام عن الأدباء الذين وُلدوا ونشأوا في تلك الجزيرة فقط وإنما نراه يصدر عن أعلام عرّجوا عليها وعرفوها أو أقاموا بها مدة من الدهر ، غير أنّ الاهتمام الأكبر جاء من أدباء الجزيرة التي شهدت أرضها ولادتهم ونشأتهم في أحضان طبيعتها الفاتنة مثل أبي اسحق ابراهيم بن خفاجة وأبي المطرّف أحمد بن عميرة ومحسد بن إدريس بن مرج الكحل وأبي طالب عبد الجبار وأبي عامر محمد بن الأصيلي وغيرهم .

وقد أنجبت جزيرة شقر خلال تاريخها الاسلامي عدداً من الادباء البارعين الذين تعلّقوا بها وخلّدوها في أدبهم ، ولذلك وصفها ابن سعيد المغربي في كتابه اختصار القدح المعلى بأنّ «من عادَتِها إطلاع الأنجم الزهر»[١١٤] .

وقد كانت العلاقة بين جزيرة شُقْر وبين أبنائها من أهل الادب علاقة حميمة فقد تركت ـ بفضل طبيعتها الأخّاذة وحسنها الفائق ـ آثاراً عميقة في شخصيّاتهم وفي أدبهم موضوعاته وأساليبه ، فلا شك أنّ أرضاً هذه سماتها من شأنها أن ترقّ فيها المشاعر وتُصْقَلَ الأذواق وتُشْحَذَ الأذهان ، وتجعل ساكنها يشغف بها ويتعلّق بكلّ ذرّة من ترابها ويشتدّ إحساسه بالانتماء إليها ، وأنّ أرضاً هذه صفتها لا بدّ أن تجتذب العشّاق وتنجب الشعراء .

وإلى طبيعة هذه الجزيرة يرجع الفضل فيما جُبِلَ عليه شعراؤها من تعشّق للطبيعة وإكثار من وصف عناصرها المختلفة ، ومن شأن هذه الطبيعة أن تحرّك عواطف الشعراء وترهف إحساسهم وترقّق مشاعرهم وتملأ أخيلتهم بالصور البديعة واللوحات الشعريّة الجميلة .

---

(١١٤) اختصار القدح المعلى ص٥٣ .

ولذلك نجد جامع ديوان ابن خفاجة يبيّن ما تركته الطبيعة الجميلة بجزيرة شُقْر في شعره بقوله : «إكثار هذا الرجل في شعره من وصف زهرة ونعت شجرة وجرية ماء ، ورنّة طائر ما هو إلاّ لأنّه كان جانحاً إلى هذه الموصوفات لطبيعة فُطِرَ عليها وجِبِلّة ، وإمّا لأنَّ الجزيرة كانت داره ، ومنشأه وقراره ، وحسبك من ماء سائح ، وطير صادح ، وبطاح عريضة ، وأرض أريضة ، فلم يعدم هنالك ، من ذلك ، ما يبعث مع الساعات أنسه ، ويحرّك إلى القول نفسه ، حتى غلب عليه حبّ ذلك الأمر ، فصار قوله فيه عن كلف ، لا تكلّف ، مع اقتناع ، قام مقام اتساع ، فأغناه عن تبذّل وانتجاع»[١١٥] .

وقد تراوح الأدب ، الذي تصدّى لذكر هذه الجزيرة ، بين وصف لطبيعتها الجميلة والعناصر المختلفة لتلك الطبيعة ، أو ذكر لمعالمها وحنين إليها ، أو تحسّر على أسباب اللهو التي كانت تجري في مرابعها ، أو ندب لها ، أو ذكر لبعض الحوادث التاريخية التي مرّت بها ، أو رثاء للجزيرة بعد سقوطها أو غير ذلك .

أما وصف طبيعة الجزيرة ، فيشتمل في العادة على وصف النهر الذي يحيط بها ، وبطاحها ونسائمها وطيورها وأشجارها ووردها ونوّارها ومكانة ذلك كلّه في نفس الشاعر ، مع الاتكاء بصورة كبيرة على التصوير البديع وايراد التشبيهات المختلفة والمبالغة أحياناً في تلك التشبيهات ، فها هو ابن خفاجة ـ وهو أكثر من تغنّى من شعراء الجزيرة بمحاسن بلده ـ يشبّه الجزيرة بالجنّة حيث يقول :[١١٦]

فسقيـا لأرضٍ ألّفتنـا فـإنّهـا ... وإنْ أكُ قَدْ فارقْتُها جَنَّةُ الخُلْدِ

وعندما يتحدّث ابن خفاجة في مقطوعة له عن جنّة الخُلْد في الأندلس فإنّه يعني جزيرة شقر ، حيث يقول :[١١٧]

يـا أهـلَ أنـدلسٍ لله درّكـم ... مـاءٌ وظِـلٌّ وأنْـهـارٌ وأشـجـارُ
مـا جنّةُ الخُلْدِ إلاّ في دياركم ... وهـذه كنتُ لـو خُيِّـرْتُ أخْتَـارُ
لا تنّقوا بعدها أن تدخلوا سَقَراً ... فليس تُـدْخَلُ بعـد الجنّـةِ النـارُ

(١١٥) ديوان ابن خفاجة ص ٢٩٠ .
(١١٦) ديوان ابن خفاجة ص ٣٤٨ .
(١١٧) المصدر السابق ص ٣٦٤ .

وحيث يقول :[118]

إنّ لـلجـنّـةِ بـالأنْـدَلُسِ مجـتـلى حُسْـنٍ وريّـا نَـفَسِ
فـسنـا صُـبْحَتِـهـا مـن شَـنَـبٍ ودُجـى لَـيْـلَتِـهـا مـن لَـعَسِ
فـاذا مـا هبّتِ الـريـحُ صَـبـاً صِحْتُ واشَـوْقي إلى الأنْـدَلُسِ

وها هو ذا أبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومي يصف جزيرة شقر من رسالة له فيقول : «ويا لجنّةٍ أجرى الله النَهْرَ تَحْتَها»[119] .

وكان ابن خفاجة من أكثر شعراء بلده وصفاً لطبيعة الجزيرة وتغنّياً بمحاسنها وإفصاحاً عن عشقه لها وتعلّقه بمعالمها ، فها هو يقول من قصيدة ، بعد أن يصِفَ فرسه الذي حمله إليها :[120]

وَحَنَّ إلى شُقْـرٍ فَخَفَّ على السُـرى
يَخُـوضُ خَليجـاً أوْ يَجُـوبُ كَثِيبـا
يَـؤُمُّ بـهـا أرْضـاً عـليَّ كَـريـمـةً
وَمُـرْتَـبَـعـاً فـيـهـا إلـيّ حَـبـيـبـا
ونهْـراً كمـا ابيضَّ المُقَبَّـلُ سَلْسَـلاً
وجـزْعـاً كمـا اخضَـرَّ العِـذارُ خَضِيبـا
وَرُبَّ نـسـيـمٍ مـرَّ يَـخْـطُرُ عـاطِـراً
رقـيـقَ الـحـواشـي لا يُـحَسّ دبـيـبـا
وَجَـدْتُ بـه من ذلـك المـاءِ بـلّةً
ومن نَـوْرِ هـاتيـك الأبـاطـحِ طِيبـا
فمـا كـان إلاّ أنْ هتفْتُ حـمـامـةً
وسـاعـدتُ شـوْقي فـاهتـززْتُ قضيبـا
وقـد قـلّد النّـوارُ جِـيـداً لـربْـوَةٍ
هـنـاك ونَـحْـراً لـلفـضـاءِ رحـيـبـا

---

(١١٨) المصدر السابق ص ١٣٦ ، وقد قال هذه الأبيات في التشوّق الى الأندلس وهو في المغرب .
(١١٩) الروض المعطار ص ٩٨ ؛ نفح الطيب ٤٩٣/٤ .
(١٢٠) ديوان ابن خفاجة ص ١١٢ ـ ١١٣ .

وأفْصَحَتِ السورقاءُ في كلِّ تلعةٍ
نشيداً وقد رقَّ النسيمُ نسيبا
وكان على عهْدِ السلوّ تغنّياً
يهيّج إطرابي فعادَ نحيبا
دعا بغُروبِ الدمْعِ والدارُ غُرْبَةٌ
فلم أرَ إلّا داعياً ومُجيبا

ويلاحظ القارىء لهذه الأبيات أنّ ابن خفاجة لا يكتفي ، حين يصف بلده بتصوير معالم ذلك البلد ، وإنما يصفه وصف عاشق له ، فيبالغ في تصوير محاسنه . كما يصوّر لنا تفاعله مع طبيعة بلده وإقامة صلات وجدانية بينه وبين عناصر تلك الطبيعة ، فهو يهتِفُ في أباطحها كالورقاء ويهتز كالغصن ويأسى لفقدانها فتفيض عيونه بالدمع .

ويبدو أن حبّ جزيرة شُقْر قد وقع في قلوب كلّ من عرفوها أو وطئوا أرضها من الشعراء من غير أبنائها ، فها هو الشاعر ابن عابد الفاسي[١٢١] ، يتمنّاها أن تكون بديلاً لوطنه وأهله ، لما توفّره لقاطنيها من الأمن والهدوء ، حيث يقول من قصيدة موجّهة إلى صديقه أبي العباس أحمد بن محمد بن خلف بن يونس بن طلحة الشُقْريّ سنة ٦٢٣ هـ وهما بمراكش :[١٢٢]

سقى جزيرةَ شُقْرٍ صوْبَ خاطرِهِ
فلستُ أرضى لها صَوْبَ الحيا الهَتِنِ
أرضٌ بودّيَ أنْ أحظى بها عِوَضاً
عن الحظِيّيْنِ من أهلٍ ومن وطن
اذا استجار أخو حُزْنٍ بساحتها
أضحى مدى الدَّهْرِ في أمْنٍ مِنَ الحَزَنِ

---

(١٢١) أبو عبدالله محمد بن علي بن العابد الفاسي المتوفي سنة ٦٩٠هـ ، كاتب وشاعر ، قدم الاندلس سنة ٦٣٠هـ ، وارتسم بالكتابة عند محمد بن يوسف بن الاحمر ملك غرناطة (انظر : الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشي /السفر الثامن/ القسم الاول ص ٣٣٣ ؛ الإحاطة لابن الخطيب ٢/٢٨١) .

(١٢٢) الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشي /السفر الاول/ القسم الاول ص ٣٧٨ .

مـحـلّ كـلّ رئيسٍ لـيس هـمّـتـه
إلّا ابـتيـاع الـعُلى بـأنـفس الـثـمـنِ
ولا تُـصَـرِّفُ غيـرَ الـعَـضْـبِ راحـتُـهُ
أو الـيـراعـةِ أو أشـبـاهِـهـا الـلُّدُنِ

ولئن كانت أبياتُ ابنِ عابد الفاسي هذه تذهب مذهب المجاملة ، وتبدو فيها العاطفة باهتة ، فإننا نجد في شعر أبي عبد الله محمد بن عائشة المرابطي في الحنين إلى جزيرة شقر وذكر محاسنها ما يعبّر عن حبّ صادق وعاطفة جيّاشة ، فها هو يقول من قصيدة له مطلعها :(١٢٣)

ألا خلّياني والصِّبا والقـوافيا أردِّدُها شَجْواً فـأجهش بـاكِيـا

بعد أبيات :

وقـد بـانَ حُـلْوُ العيشِ الاّ تَـعِـلّةً
تـحـدّثني عنـهـا الأمـانيّ خـالـيـا
فيا بَرْدَ ذاك الماءِ هل منك قطرةٌ
فهـا أنـا أستسْقي غـمـامَـكَ صـادِيـا
وهيهـاتَ حـالَتْ دون شُقْرٍ وعَهْـدِهـا
لـيـالٍ وأيّـامٌ تُـخَـالُ لـيـالِـيـا
فقُلْ في كبيرٍ عـادَهُ عـائِـدُ الصِّبا
فـأصْبَـحَ مُهْتـاجاً وقـد كـانَ سَـالِيـا
فيـا راكباً مستعملَ الخَـطْوِ قـاصـدا
ألا عُـجْ بـشُقْـرٍ رائِـحـاً ومُـغْـادِيـا
وَقِفْ حيثُ سـال النَهْرُ ينسـابُ أرقماً
وهَـبَّ نسيمُ الأيْـكِ ينـفـثُ راقِـيـا

---

(١٢٣) انظر هذه الأبيات في مطمح الأنفس للفتح بن خاقان ص ٣٤٩ ؛ معجم البلدان لياقوت الحموي ٣/٣٥٤ ـ ٣٥٥ ، وينسب ابن سعيد المغربي البيتين قبل البيت الأخير الى أبي القاسم عبد الرحمن بن خرشوش (رايات المبرزين ص ١٢٣) .

وقُـلْ لأُثَـيْـلاتٍ هـنـاك وأَجْـرُعٍ
سُقِيـتِ أُثَيْـلاتٍ وحُـيِّـيـتَ وادِيـا

وهناك شعر غير قليل يصف ما كان يدور في أنحاء جزيرة شقر وميادينها من مجالس اللهو التي كان يجتمع فيها الأصدقاء والأحبّة في الرياض والمتنزّهات وعلى ضفاف الأنهار وفي القوارب النهريّة ، فمن ذلك قصيدةٌ لمحمد بن ادريس بن مرج الكحل يصف فيها عشيّة قضاها مع أصحابه على ضفّة نهر شقر عندما كانت تحفّ به أشجار البرتقال التي كانت تزدان بثمارها اليانعة ، ويصف فيها أيضاً المطارحات الشعرية والأحاديث التي دارت بينهم بينما الطيور من حولهم تهتف بأغاريدها[١٢٤] .

وعشيّـةٍ كـانت قنيصَـة فِتْيَـةٍ ... ألْفَوْا من الأدَبِ الصريحِ شُيوخا
فكـأنّها العنقـاءُ قـد نَصَبُـوا لهـا ... من الانْحِناءِ إلى الوقوعِ فُخُوخا
شَـمَلَتْهُـمُ آدابُـهُـمْ فـتجـاذَبـوا ... سِرَّ السُـرورِ مُحَـدِّثـاً ومُصيخـاً
والوُرْقُ تقرأُ سُـورةَ الطَرَبِ التي ... يُنْسيـكَ منهـا نـاسخٌ مَنْسُـوخا
والنهْـرُ قد طفحت بـه نـارَنْجُـهُ ... فتيمّمَتْ من كـان فيـه مُنيخـا
فتخـالُهم خَلَلَ السمـاءِ كـواكبـا ... قـد قـارَنَتْ بسعـودِهـا المـرّيخـا
خَرْقُ العوائِدِ في السُرورِ نهارهم ... فَجَعَلْتُ أبيـاتي لهـا تـاريخـا

ومن هذا القبيل أيضاً قصيدة لابن خفاجة قالها في زمن صباه يصف فيها أيام مرحه وطربه ، وعشايا لهوه ولعبه ، بباب الزخارف ، من أبواب جزيرة شقر ، يقول فيها :[١٢٥]

ألا رُبَّ يـومٍ لي ببـابِ الـزخـارف
رقيقِ حـواشي الحُسْنِ حُلْوِ المـراشف
لهـوتُ بـه والـدهـرُ وسنـانُ ذاهِـلٌ
وغُصْنُ الصِّبـا ريّـانُ لَـدْنُ المَعَـاطِفِ
أُعـاطي تَحـايـا الكـاسِ والآسِ فتيـةً
تخـايَـلُ سـودَ العُـذْرِ بيضَ السـوالِفِ

---

(١٢٤) انظر هذه القصيدة في : معجم شيوخ الرعيني ٢٠٨ ؛ نفح الطيب ٥٢/٥ .
(١٢٥) ديوان ابن خفاجة ص ٢١٠ ـ ٢١١ .

وذيْـلُ رِداءِ الـغَيْـمِ يخـفِقُ والـصَـبـا
تخبُّ ومـوجُ النهـرِ ضخمُ الـرَّوادِفِ
يـطيـرُ بـنـا فـيـهِ شِـراعٌ كـأنّـه
إذا ضَـرَبَتْـهُ الـريحُ أحشـاءُ خـائِفِ
وقـد بلَّ أعـطافَ الثّـرى دَمْـعُ مُـزْنـةٍ
تحيّـر في جفْنٍ من النَّـوْرِ طـارِفِ
زمـانٌ تـولّـى بيـن كـأسٍ تَـليـدةٍ
تُـدارُ وعَـيْشٍ لـلحـداثـةِ طـارِفِ
وشـمسٍ لِـلألاءِ الـزجـاجـةِ طَـلْقَـةٍ
وظـلٍّ لـريـعـانِ الشـبيبـةِ وارِفِ[126]

ولابن خفاجة مقطوعة شعرية جميلة يصف بها وَجْدَهُ عندما مرّ بأيكة على ضفاف نهر شقر كان يلتقي فيها مع محبوبته ، ويقدّم الفتحُ بن خاقان في كتاب «قلائد العقيان» هذه القصيدة بقوله «وكانت بضفّة الجزيرة أيكة يانعة ، وكان هو ومن يهواه يقعدان لديها ، ويوسّدان خدودهما ابرديها ، فمرّ بها ومحبوبه قد طواه الردى ، ولواه عن ذلك المنتدى ، فتذكّر العهد وجماله ، وأنكر صبره لفقده واحتماله ، فقال :

ألا ذكّـرتْني العَهْـدَ بـالأُنسِ أيْكَـةٌ
فـأذكـرتُهـا نـوح الحمـامِ المـطوّقِ
وأكببتُ أبكـي بيـن وَجْـدٍ أنـاخَ بي
حـديثٌ وعَـهْـدٍ لـلشبيبـةِ مُـخْلِقِ
وأنـشَـقُ أنـفـاسَ الـريـاحِ تـعـلّلاً
فـأعـدم فـيهـا طِيبَ ذاك التنشُّقِ
ولـمّـا عَلَتْ وَجْـهَ الـنهـارِ كـآبَـةٌ
ودارَتْ بـه لـلشَّمْسِ نـظرةُ مُـشْـفِـقِ
عـطفتُ على الأجـداثِ أجهشُ تـارةً
وألـثُمُ طَـوْراً تُـرْبَـهـا مِـنْ تَـشَـوُّقِ

(١٢٦) انظر مثالاً آخر في ديوان ابن خفاجة ص ٣٤٦ - ٣٤٩ .

وقلتُ لِمُغْفٍ لا يهبّ من الكرى
وقد بِتُّ مِنْ وَجْدٍ بِلَيْلِ المؤرَّقِ
لقد صدعت أيدي الحوادثِ شَمْلَنا
فهل مِنْ تلاقٍ بَعْدَ هذا التَفَرُّقِ
وإنْ تَكُ للخلَّيْنِ ثَمَّ التقاءةٌ
فيا ليتَ شِعْري أينَ أو كَيْفَ نَلْتَقي
فأعزِزْ علينا إنْ تَبَاعَدَ بيننا
فلم يَدْرِ ما ألقى ولم أدْرِ ما لَقي (١٢٧)

وقد كان وقوع الجزيرة على ضفاف نهر شقر مدعاة الى خروج أهل تلك الجزيرة إلى النهر بالقوارب إمّا للنزهة وقضاء الساعات الممتعة وإما لصيد السمك ، وقد أورد ابن الابار في تحفة القادم قصيدة أنشدها له أبو المطرف بن عميرة في وصف نزهة بنهر جزيرة شقر ، وفي هذه القصيدة وصفٌ للقارب الذي خرج به المتنزهون ، وللشباكِ التي كانت معهم ، وللسمك الذي اصطادوه في تلك الرحلة النهريّة ، فيقول : (١٢٨)

خُذْ في حديثِكَ إنَّ وَصْفَكَ يُطْرِبُ
عن يومِ أُنْسٍ ذِكْرُهُ مُسْتَعْذَبُ
واطلبْ أحاديثاً من الأيّام إنْ
سَمَحَتْ بذا وأظنّ ذلك يَصْعُبُ
يومٌ أرانا الحُسْنَ في النهرِ الذي
قد طاب منه موردٌ أو مَشْرَبُ

---

(١٢٧) الفتح بن خاقان ، أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيدالله بن خاقان بن عبدالله القيسي الاشبيلي (ت ٥٢٩هـ/١١٣٥م) ، قلائد العقيان في محاسن الأعيان ، مصورة عن طبعة باريس ، قدّم له ووضع فهارسه محمد العناني ، المكتبة العتيقة ، تونس ، ١٩٦٦ ، ص ٢٧٣ .

(١٢٨) ابن الابار القضاعي ، أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن أبي بكر البلنسي (ت ٦٥٨هـ/١٢٦٠م) ، المقتضب من تحفة القادم ، نشرها الفريد بستاني ، مجلة المشرق ، بيروت ، المجلد ٤١ ، السنة ١٩٤٧ ، ص ٥٧٥ - ٥٧٦ .

يمشي ويزجي مَوْجَهُ فكأنّه
لما انتهينا ما يواري مقضَبُ
وقد امتطيْنا زورقاً فيه فقُلْ
صُبْحٌ تمشّى في سناه غيهبُ
فتراه طوْراً طائرا ولربّما
ضمّت جناحاه إليه فيجنبُ
ولنا شباكٌ قد تجاذَبَ غَزْلَهَا
خدّانِ يطفو ذا وهذا يَرْسُبُ
نُسِجَتْ كنسج الدّرْعِ لكنَّ السردى
لم يَعْدُ لابِسَها إذا ما يطلبُ
تُبْدي لنا سَمَكاً أرادت أن يُرى
حُسنٌ بها فلأجْلِهِ تتقلّبُ
فكأنّها من جمرةِ الماء الذي
حصباؤه من صفوه لا يُحْجَبُ
يا نَهْرَ شُقْرٍ فيك أدركْتُ المُنى
فلأنْتَ من نَهْرٍ إليّ محبَّبُ
يَهنيك إذْ حُزْتَ المحاسنَ كُلَّها
أنّي سأشْعرُ في حلاك وأخْطُبُ(١٢٩)

ولم ينس شعراء جزيرة شقر بلدهم ومحاسنها إذا ما وقعت أنظارهم على أيّ مكان يماثلها او يشاركها في محاسنها ، فها نحن نجد أبا المطرف أحمد بن عبدالله بن عميرة يصف نزهة في نهر إشبيلية صدر سنة ٦١٧ هـ باقتراحٍ من ابن الأبّار ، فيذكّره

---

(١٢٩) ومن الامثلة على وصف النزهات في جزيرة شقر قول ابي جعفر احمد بن طلحة من شعراء تلك الجزيرة :

يا هل ترى أظرف من يومنا قلّد جيدَ الأفق طوق العقيق
وانطق الوُرْقَ بعيدانها مطربة كلّ قضيبٍ وريق

(نفح الطيب ٤/١٥٤)

نهرُ إشبيلية في مدّه وجزره بنهر جزيرة شقر ، فيقول :[١٣٠]

يا حِمْصُ إنّكِ في البلادِ فريدةٌ
ببديعِ حُسْنٍ جَلَّ عن تحسينِ
أحببْ بنهرِكِ حينَ يَزْخَرُ مدُّهُ
فيروق منه تحرُّكٌ كسكونِ
ويعودُهُ الجَزْرُ الذي يبقى على
شَطَّيْهِ حَجْراً دونه للطّينِ
مثل الجزيرةِ إنْ تقلّص ثوبُها
خَجِلَتْ لِشَيْنٍ تحته مدفونِ
فكأنّما هو عاشقٌ ذو زَفْرةٍ
تعتادُهُ في الحين بعدَ الحين
. . . . . الخ

وقد بلغ تعلّق شعراء جزيرة شقر ببلدهم حدّاً جعلهم لا يطيقون صبرا عنها إذا ما كتب لهم فراقها طوعا أو كرها ، فصدرت عنهم قصائد في الحنين الى جزيرتهم تنبض بالحرارة وصدق العاطفة ورهافة الاحساس ، وتنم عن شغف بأرض جزيرة شقر لا يعادله شغف الى أي موطن آخر ، وأكثر شعر الحنين الى الجزيرة صادر عن شاعرها الأول ابن خفاجة الذي لم يكد يخرج منها الى الشمال الافريقي حتى أحس برغبة جامحة في العودة اليها ، وقبل أن يتمكن من الوصول اليها جادت قريحته بعدد من القصائد البديعة في الحنين الى بلده ، حيث ذكر محاسنها ومعالمها البديعة وذكرياته الماضية فيها ، وحنينه الجارف الى العودة الى أحضانها الدافئة ثانية وشكواه عن التغرب من الأهل والديار ، فمن ذلك قصيدة يتحدث فيها عن جزيرة شقر وإحاطة الوادي بها ويتشوق الى معالمها ويندب ماضي زمانه فيها :[١٣١]

---

(١٣٠) المقتضب من تحفة القادم ص ٥٧٤ .

(١٣١) ديوان ابن خفاجة ص ٣٦٤ ـ ٣٦٥ ؛ الروض المعطار ص ٣٤٩ ـ ٣٥٠ .

بَـيْـنَ شُـقْـرٍ وَمُـلْـتـقى نَـهْـرَيْـهـا
حَيْثُ أَلْقَتْ بنـا الأمـاني عـصـاهـا
وتـغـنّـى الـمُـكّـاءُ في شـاطِئَـيْـهـا
يـسـتـخِـفّ الـنـهـى فـحـلّـت حـبـاهـا
عـيـشـةٌ أقْـبَـلَـتْ شـهـيٌّ جـنـاهـا
وارفٌ ظـلُّـهـا لـذيـذٌ كَـرَاهـا
لَـعِـبَـتْ بـالـعـقـولِ إلّا قـلـيـلاً
بـيـن تـأويـبِـهـا وبَـيْـنَ سُـراهـا
فـآنْـثَـنَـيْـنـا مـع الـغـصـونِ غُـصُـونـا
مَـرَحـاً فـي بـطـاحِـهـا ورُبـاهـا
ثـم ولّـت كـأنّـهـا لم تـكَـدْ تَـلْـبَـثُ
إلّا عـشِـيّـةً أو ضُـحـاهـا
فـانـدُبِ الـمـرجَ فـالـكـنـيسـةَ فـالشَـطَّ
وقُـلْ آهِ يـا مـعـاهِـدُ آهـا
آهِ مـن عَـبْـرةٍ تَـرَقْـرَقُ بَـثّـاً
آهِ مـن رِحْـلةٍ تـطول نُـواهـا
آه مـن فُـرْقـةٍ لـغـيـرِ تَـلاقٍ
آهِ مـن دارٍ لا يـجـيـبُ صَـداهـا
لستُ أدْري وَمَـدْمَـعُ الـمُـزْنِ رَطْبٌ
أَبَـكـاهـا صَـبـابـةً أو سَـقَـاهـا
فـتـعـالَـيْ يـا عـيـنُ نَـبْـكِ عـلـيـهـا
من حـيـاةٍ إنْ كـانَ يُـغْـنـي بُـكـاهـا
وشـبـابٍ قـد فـاتَ إلّا تـنـاسِـيـهِ
ونَـفْـسٍ لـم يَـبْـقَ إلّا شَـجـاهـا
خـلِّ عـيـنـي تـبـكي عـلـيْـهـا وقـلـبـي
يـتـمـنّـى سـوادُهُ لَـوْ فَـداهـا

ويظهر لي أن ابن خفاجة قد قال هذه الابيات بعد سقوط مدينة بلنسية وجزيرة شُقْر في يد الكمبيطور سنة ٤٨٨ هـ .

وفي الحنين الى الجزيرة والتشوق لأرضها في أثناء سفره يقول ابن خفاجة :[١٣٢]

أَجَبْتُ وقد نادى الغرامُ فأَسْمَعا
عشِيّةَ غنّاني الحمامُ فرجَّعا
فقلتُ ولي دَمْعٌ ترقرقَ فآنهمى
يسيلُ وصبرٌ قد وهى فَتَضَعْضَعا :
ألا هلْ إلى أرضِ الجزيرةِ أوْبةٌ
فأسْكُنَ أنفاساً وأَهْدَأَ مَضْجَعا
وأغدو بواديها وقد نَضَحَ الندى
معاطفَ هاتيك الرّبى ثمّ أقشعا
أغازلُ فيها للغزالةِ سنةً
تحطّ الصبا عنها من الغيمِ بُرْقُعا
وقد فضَّ عقدَ القَطْرِ في كلّ تَلْعَةٍ
نسيمٌ تمشّى بينها فتَضَوّعَا
وبات سقيطُ الطلّ يضرِبُ سرحة
ترفّ بواديها وينفح أجرعا
وإنْ تَنْأَ مِنْ دارٍ الـيّ حبيبةٍ
وحسبُكَ مصطافاً وناهيكَ مَرْبَعا
فقد تَرَكَتْني بين جفنٍ جفا الكرى
وجنبٍ تقلّى لا يلائِمُ مَضْجَعا
أُقلّبُ طرفي في السماءِ لعلّني
أشيمُ سنا بَرْقٍ هناك تطلّعا
.... الخ

---

(١٣٢) ديوان ابن خفاجة ص ١٢٨ .

ومن هذا القبيل في التشوق الى الوطن قوله أيضا من قصيدة :[١٣٣]

فيا لَشَجا صَدْرٍ من الصبرِ فارغٍ
ويا لقذى طَرْفٍ من الدَمْعِ ملآنِ
ونفسٍ إلى جوّ الكنيسةِ صَبَّةٍ
وقلْبٍ إلى أُفْقِ الجزيرةِ حَنَّانِ
تَعَوَّضْتُ من واهاً بآهٍ ومِنْ هوىً
بهونٍ ومِنْ إخوانِ صِدْقٍ بِخُوّانِ
وما كلّ بيضاءٍ تروقُ بشحْمَةٍ
ولا كلّ مرعىً تَرْتَعِيه بسعدانِ
فيا ليتَ شعري هل لدهريَ عطفةٌ
فتجمع أوطاري عليَّ وأوْطاني
ميادينُ أوطاري وَمَعْهَدُ لذّتي
ومنشأُ تَهْيامي وَمَلْعَبُ غِزْلاني
كأنْ لم يَصِلْني فيه ظَبْيٌ يقومُ لي
لماه وصُدغاه بِراحٍ وَرَيْحانِ
فسقياً لواديهم وإن كُنْتُ إنّما
أبيتُ لذكراه بغلّةِ ظَمْآنِ
فكم يومِ لهوٍ قد أدَرْنا بأُفْقِهِ
نجومَ كؤوسٍ بَيْنَ أقمارِ نُدْمانِ
وللقُضْبِ والأطْيارِ مَلْهىً بِجِزْعِهِ
فما شئتَ مِن رقْصٍ على رَجْعِ ألْحانِ

ولابن خفاجة كثير من القصائد في هذا الغرض من الحنين الى الوطن ومعالمه وذكرياته المختلفة فيه[١٣٤] ، ولذلك قال عنه صاحب مطمح الأنفس إنّه حينما «اشتعل

---

(١٣٣) المصدر نفسه ص ٣٤٥ .

(١٣٤) انظر أمثلة أخرى على ذلك في : قلائد العقيان ٢٧٣ ؛ الذخيرة م٣ ق٢ ص ٨٩٠ ؛ النفح ٤/٥٥ ؛ مطمح الأنفس ص ٣٤٩ ، رايات المبرزين ص ١٢٣ .

رأسه شيبا ، وزرّت عليه الكهولة جيبا ، اقتصر على الحنين والشوق ، وقنع بأدنى تحيّة ، وما يستشعره بوصف تلك العهاد من أريحية . . .»[١٣٥]

ومن الذين أكثروا من الحنين الى جزيرة شقر شاعرها وأديبها أبو المطرف بن عميرة ، وكان أكثر أسفارا من ابن خفاجة وأكثر تنقّلا عن وطنه ، فمن ذلك قوله من قصيدة يتذكّر فيها مياه بلده ونسائمه وسكّانه وشوقه إلى ذلك كله .[١٣٦]

وللشَـرْقِ في قـلبي لبـانـةُ عـاشِقٍ
فيـا لَيْتَ شِعْـري من يبلّغُهـا الشَـرْقـا
ألا إنّ مـاءً فيـه مـا كنتُ أشتكي
لهيبَ الحشى لو كنتُ يوماً به أُسْقى
وطيـبَ نـسيـمٍ لا يـرى مـن أضـلّه
سوى اليأسِ منه أو يرى ذلك الأُفْقا
فَمَنْ مُبْلِغٌ سُكّـانَـهُ أَنَّ عَهْـدَهُـمْ
وإنْ هُمْ أضـاعُـوه على حِفْـظِهِ أَبْقى
سـلامٌ عليهِمْ كَيْـفَ كـانـوا فـإنّهُـمْ
وإنْ لَمْ يـرِقُّـوا لا أزالُ لَهُـمْ رِقّـا

ونلحظ في كل ما قيل في التشوق والحنين الى جزيرة شقر أنه لا يغفل التغني بطبيعتها الساحرة وما تحتويه من أنهار وأشجار وبلابل ونسائم عاطرة وغير ذلك ، ونلحظ هناك تمازجا بين الزمن المنصرم في حياة هؤلاء الشعراء وبين جزيرة شقر ، فاذا ما وصف الشعراء جزيرة شقر تحدثوا عن ذكرياتهم الماضية في جنباتها ، واذا ما ندبوا أيامهم الماضية وتأسفوا على شبابهم ذكروا جزيرة شقر التي كانت ساحاتها ومتنزهاتها وشطآنها ميدانا رحبا لذكريات الشباب ، وهذا التمازج بين أحاديث الماضي وذكريات الصبا والتعلق بالوطن واضح وجليّ في كثير من قصائد ابن خفاجة ، ففي سنة ٥١٠ هـ يخرج ابن خفاجة عن جزيرة شقر اضطرارا لا اختيارا ،

---

(١٣٥) مطمح الأنفس ص ٣٤٨ ـ ٣٤٩ .

(١٣٦) الذيل والتكملة /السفر الاول/ القسم الاول/ ص ١٧٢ ـ ١٧٣ .

(*) يقصد شرق الاندلس (بلنسية وشقر وشاطبة . . .) .

ويحطّ رحاله في شاطبة ـ التي تقع على بعد ١٢ ميلا فقط جنوب جزيرة شقر ـ ويأتي عيد الفطر وهو في شاطبة ، وينشد ابن خفاجة قصيدة يهنيء بها أبا اسحق ابراهيم بن يوسف بن تاشفين في شاطبة ، يبدأها بندب ماضيه والتحسّر على بلده فيقول :(١٣٧)

سجعتُ وقد غنّى الحمامُ فرجّعا
وما كنت لولا أن تَغَنّى لأسجعا
وأندبُ عهداً بالمُشَقّر سالفا
وظلَّ غمامٍ للصبا قد تقشّعا
ولم أدرِ ما أبكي أرسْمَ شبيبةٍ
عفا أم مَصيفاً من سُليمى ومَرْبَعا
وأوجع توديع الأحبّة فرقةً
شبابٌ على رغم الأحبّة ودّعا
وما كان أشهى ذلك الليل مَرْقَدا
وأندى محيّا ذلك الصبح مطلعا
وأقْصَرَ ذاك العهدَ يوما وليلةً
وأطْيَبَ ذاك العيشَ ظلاّ ومكرعا
زمان تقضّى غير ذكرى معاهد
تسوم حصاةَ القلب أن تتصدّعا
تحوّلْتُ عنه لا اختياراً وربّما
وجعتُ على طول التلدّد أخدعا
ومن لي ببرد الريح من أبرقِ الحمى
وريّا الخزامى من أجارع لعلعا
وقد فات ذاك العهدُ إلا تذكّرا
لواني على ظهر المطيّ توجُّعا

---

(١٣٧) ديوان ابن خفاجة ص ٥٦ ؛ قلائد العقيان ص ٢٧٥ .

وكنت جليدَ القلبِ والشملُ جامعٌ
فما انفضّ حتى خار فارفضّ أدمعا
وبلّت نجادي عبرةٌ مستهلّةٌ
أكفكِفُ منها بالبنان تصنّعا
وإنّي وعيني بالظلام كحيلةٌ
لآبى لجنبي أن يُلائِمَ مَضْجَعا
وأكبر شانا أن أرى الصبحَ أبيضا
بعينٍ ترى رَبْعَ الشبيبةِ بَلْقَعا
كأنّيَ لم أذهب مع اللهْوِ ليلةً
ولم أتعاطَ البابليَّ المُشَعْشَعا
ولم أتخايَلْ بين ظلٍّ لسَرْحةٍ
وسجع لغرّيد وماءٍ بأجرعا
ولم أرْمِ آمالي بأزرقَ صائبٍ
وأبيضَ بسّامٍ وأسْمَرَ أصْلعا

* * * * * * *

وفي الادب الاندلسي نصوص أدبية كثيرة ذات دلالات تاريخية ، اذ صدرت عن أصحابها نتيجة أحداث تاريخية بارزة مرّت بها جزيرة شقر ، بعضها متصل بالحوادث التي مرت بها الجزيرة زمن الطوائف ، وبعضها مرتبط بحوادث مرت بها تلك الجزيرة في أواخر عصر المرابطين ، وأكثرها شعر ونثر يندب جزيرة شقر اثر سقوطها في يد الاراغونيين أواخر سنة ٦٣٩ هـ .

وفي هذا الاطار نجد رسالة كتبها أبو عامر محمد بن الأصيلي ، من أدباء الاندلس في القرن الخامس الهجري ، إلى ذي الوزارتين أبي محمد بن أبي الفرج ، يُعَرِّفُهُ فيها ما لقيه من رؤساء جزيرة شقر عند توجّهه اليها[١٣٨] ، وقد بدأها بأبيات منها :

---

(١٣٨) خريدة القصر للعماد الاصفهاني ٢/٢٤٣ - ٢٤٨ .

حَلَلْتُ الجزيرةَ سُحْقا لها كأنّي حللتُ بسردانية*
مُنِعْتُ الدخولَ إلى أهْلِها فدُرْتُ كما دارتِ السانية
وبتُّ ثلاثا بها طاوِياً قِراي هُمومي وأحزانِيَه
فقُل لابن ذي النون** ما باله يولّي الحصونَ بني الزانية

ومن قوله في هذه الرسالة ايضا :

« . . . الى أن وافيتُ الجزيرة ، وآمالي بها كثيرة ، ونزلت منها على مقدار شأوي ، وقدّمت كتابك إلى الوزيرين الجليلين أبي جابر وابن طريف ، أكرم الله بهما أعواد الكنيف وكان من برّهما أني نزلت خلف السور أخزى نزول :

حتى اذا رمتُ دخولا أبَتْ نَفْسُ أبي الحجّاج لي بالدخول
راسلْتُهُ مستنزِلاً داعيا فكاد أن يَقْطَعَ رأسَ الرسول
أكرِمْ به من قائدٍ ماجدٍ يَصْلُحُ للحرْثِ وَرَعْيِ العُجول

ويقول فيها أيضا من شعر :

قل لابن ذي النون الرئيس الذي
ليس له شيء من البَخْتِ
يا مالكا يجعل قُوّاده
قوما عدَوْا بالسلْبِ والنهْتِ
جاءوا الى الشرقِ جياعا فما
يُشْبِعُهُمْ شيءٌ من السُّحْتِ
. . . . .
لا جبر الله بني جابرٍ
وزادَهُمْ مقتا إلى مقتِ
وابن طريف لا رنا طرفُه
في جسمه إلاّ إلى برْتِ

(*) جزيرة في البحر المتوسط قبالة الساحل الشرقي للاندلس .

(**) هو القادر بن ذي النون الذي استولى على بلنسية وشاطبة وشقر بمساعدة الفونسو السادس سنة ٤٧٨ هـ (انظر الصفحات السابقة عن تاريخ جزيرة شقر) .

ان تـأتِـهِ فـي حـاجـةٍ يـعـتـذِرْ
عُـذْرَ يـهـودٍ غـدْوَةَ الـسـبـتِ

وتأتي قيمة هذه الرسالة من ندرة المعلومات التي تتحدث عن جزيرة شقر في أيام استيلاء القادر بن ذي النون عليها ، فهي على ذلك تلقي بعض الاضواء ـ وان كانت باهتة ـ على فصل من تاريخ تلك الجزيرة .

وعندما ثارت جزيرة شقر ـ بزعامة أبي بكر أحمد بن محمد بن جعفر بن سفيان المخزومي ـ في سنة ٥٦٦ هـ على محمد بن سعد بن مردنيش ، وتعرّضت على إثر ذلك للحصار الشديد من قِبَل محمد بن مردنيش وأخيه أبي الحجاج يوسف ، كتب أبو المطرف محمد بن أبي بكر أحمد بن محمد بن جعفر بن سفيان المخزومي ، قصيدة استنجاد وجّهها الى الخليفة الموحّدي أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن يستصرخه لاستنقاذ الجزيرة من بني مردنيش يقول فيها :(١٣٩)

تـدارِكْ أميـرَ الـمسـلميـن دِمـاءَنـا
فـإنّـكَ لـلإسـلامِ والـديـنِ نـاصِـرُ
ووجّـهْ إلـى اسـتـنـقـاذِنـا بـكـتـيـبـةٍ
يَهـابُ الـرّدى منهـا العـدوُّ الـمُحـاصِـرُ
تنفّسُ مـن ضيـقِ الخِـنـاقِ بقُـطرِنـا
فـتُـدْرَكَ آمـالٌ وتُـرْعـى أواصِـرُ
اذا مـا انكفى بالخـزْيِ وارتدَّ خـائِبا
فـمـطـمَحُـهُ عـن نَيْـلِهـا مُـتَـقـاصِـرُ
فليتَ ابنَ سعـدٍ إذْ تـألّف مـانَعَتْ
فلم تتـمَخَّضْ عـن قـواه العـنـاصِـرُ
سـتُـذْهِبُ أنـوارُ الـخـلافـةِ ظُـلْمَـه
وتلفـظُهُ بَعْـدَ الـخيـولِ الـمَقـاصِـرُ
ويهـدمُ مـا قـد أسّس الكفرُ عنـدَه
كـريمُ السّنـا تُثْني عليـه الخنـاصِـرُ

(١٣٩) الحلة السيراء ٢/٢٦٩ .

فهـذا الـذي يَبْني المَسـاجِـدَ أَمْـرُهُ
وأمْـرُ ابنِ سَعْـدٍ أنْ تُشَـادَ المَعـاصِـرُ
وذا الـمَلْك آيـاتُ الـمثـانـي تَـهُـزّه
وذاكَ بـأصـواتِ المثـاني البنـاصِـرُ
بـقـيـتَ أميـرَ الـمؤمـنـيـنَ مـخـلّداً
وكـلّ الورى عن كُنْـهِ وَصْفِكَ قـاصِرُ

وعندما سقطت جزيرة شقر سنة ٦٣٩ هـ بيد الاراغونيين ، خلّف سقوطها في قلوب أدبائها حزنا عظيماً وألما بالغا خلّدوه في نصوص شعرية ونثرية رفيعة تنبض بالاسى والحسرة على فراقها ومآلت اليه ، وبكوها بكاء مريرا ، وكان أدبهم فيها من أبلغ الادب الذي قيل في بكاء المدن ورثائها ، وقد كتب أبو المطرف بن عميرة ـ الذي شهد سقوط تلك الجزيرة ـ رسالة الى صديقه ابن الأبّار القضاعي البلنسي ، ينعى له فيها بلنسية وجزيرة شقر ، ويقول في فصل منها :(١٤٠)

« . . . ثم زحفت كتيبة الكفر بزُرقِها وشُقْرها ، حتى أحاطت بجزيرة شقرها ، فآه لمسقط الرأس هوى نجمُهُ ، ولفادح الخطْب سرى كلمه ، ويا لجنةٍ أجرى الله النهر تحتها ، وروضة أجاد أبو اسحق* نعتها ، وإنّما كانت داره التي فيها دبّ ، وعلى أوصاف محاسنها أكبّ ، وفيها أتته منيّته كما شاء وأحبّ ، ولم تعدم بعده محبّين قشيبهم إليها ساقوه ، ودمعهم عليها أراقوه . . . » .

ويضمن ابن عميرة رسالته هذه قصيدة في رثاء شقر ، يتألّم فيها لما أصاب الجزيرة مازجا هذا الالم بالحنين والتشوق لمعالمها وذكرياته فيها ورحلات الصيد التي كان يقوم بها في واديها فيقول :(١٤١)

أقِـلّوا مـلامي أو فـقـولـوا وأكْثِـروا
مَـلومُـكـم عـمـا بـه لـيس يُـقْـصِـر

---

(١٤٠) الروض المعطار ص ٩٨ ، نفح الطيب ٤/ ٤٩٣ .

(*) ابن خفاجة .

(١٤١) نفح الطيب ٤/٤٩٣ ـ ٤٩٥ .

وهـل غير صبٍّ مـا تني عبـراتُـه
إذا صَـعَـدَتْ أنـفـاسُـه تـتـحـدّر

يحنّ ومـا يجـدى عليـه حنينـه
إلـى أربُـعٍ معـروفُـهـا متـنكّـر

وينـدب عهـدا بـالمشقّـر فـاللّوى
وأيـن الـلّوى منـه وأيـن الـمشقّـر

تـغيّـر ذاك الـعهـد بـعـدي وأهـلُه
وَمَـنْ ذا عـلى الأيّـام لا يـتـغـيّـر

وأقْـفَـرَ رسـمُ الـدار إلّا بـقـيـةً
لسـائِلِهـا عن مثـل حـالِيَ تخبـر

فـلم تـبـقَ إلّا زفـرةٌ إثـر زفـرةٍ
ضـلوعي لـهـا تـنقـدُّ أو تـتـفـطّر

وإلّا اشـتـيـاقٌ لا يـزالُ يـهـزّنـي
فـلا غـايـةٌ تـدنـو ولا هـو يفتـر

أقـولُ لسـاري البـرقِ في جُنْحِ ليلة
كـلانـا بهـا قـد بـاتَ يَبْكي ويَسْهَـرُ

تـعـرّض مـجـتـازا فـكـان مـذكّـرا
بعهـدِ اللّوى والشيءُ بـالشيءِ يُـذْكَـرُ

أتـأوي لقلبٍ مثـل قلبِـكَ خـافـقٍ
ودمـعٍ سفـوحٍ مثـل قـطرِكَ يقـطُرُ

وتحمـلُ أنفاسـا كـومْضِـكَ نـارهـا
إذا رفـعـت تـبـدو لـمـن يـتـنـوّر

يـقـرّ بعـيـني أنْ أعـاين مَـنْ نـأى
لمـا أبْصَـرَتْـهُ منـك عينـايَ تبصـر

وأن يـتـراءاك الـخـليطُ الـذيـن هُـمْ
بقلبي وإن غـابـوا عن العَيْنِ حُضَّـرُ

كفى حَـزَنـا أنّـا كـأهـلِ محصّب
بكـلّ طـريقٍ قـد نَفَـرْنـا ونَنْفِـر
وانّ كـلَيْـنـا مـن مشـوقٍ وشـائِـقٍ
بنـارِ اغتـرابٍ في حشـاه تسعّـر
ألا ليـت شِـعْـري والأمـانيّ ضـلّة
وقَـوْلي ألا يـا ليتَ شِـعْري تحيّـر
هـل النهرُ عقـدٌ للجـزيـرةِ مثلمـا
عهِـدْنا وهـل حصباؤه وهي جـوهـر
وهـل للصَّبـا ذيْـلٌ عليـه تجـرُّه
فيـزوَرُّ عنـه مَـوْجُـهُ المتكسّـر
وتلك المغـاني هـل عليهـا طـلاوةٌ
بمـا راق منها أو بمـا رقّ تسحر
مـلاعبُ أفـراسِ الصّبـابـة والصّبـا
تـروحُ إليـهـا تـارةً وتـبـكّـر
وَقِبْليَّ ذاك النهـرِ كـانـت معـاهـدٌ
بهـا العيشُ مـطلولُ الخميلةِ أخضـر
بحيثُ بيـاضُ الصبـحِ أزرارُ جيبـه
تـطيـبُ وأَرْدانُ النـسـيـمِ تـعـطّر
ليـالٍ بمـاء الـوَرْدِ ينفـح ثـوبهـا
وطـيبُ هـواءٍ فيـه مِسْـكٌ وعَـنْبَـرُ
وبـالجَبَـلِ الأدنى هنـاك خُـطىً لنـا
إلى الـلهـوِ لا تـكبـو ولا تـتعـثّـر
جنـابٌ بـأعـلاه بَـهـارٌ ونَـرْجِسٌ
فـأبيضُ مفتـرُّ الثـنـايـا وأصْـفَـرُ
ومـوردُنـا في قـلبِ قَلْتٍ كـمـقـلةٍ
حـذارا علينـا من قـذى العَيْنِ تستر

وكم قَد هَبَطْنا القاعَ نذعر وحشه
ويا حُسْنَهُ مستقبلاً حين يذعر
نقود إليه طائعا كلّ جارح
له مِنْخَرٌ رَحْبٌ وخَصْرٌ مُضَمَّرُ
إذا ما رَمَيْناهُ بِهِ عَبَثَتْ به
مؤلّلةُ الأطرافِ عنهنّ تكشر
تضمّ لأروى النيق حزّان سهلها
وقد فُقِدَت فيها مهاةٌ وجؤذر
كذاك إلى أن صاح بالقومِ صائحٌ
وأنذَرَ بالبَيْنِ المُشَتِّتِ مُنْذِرُ
وفرّقَهُمْ أيدي سَبا وأصابَهُمْ
على غَرّةٍ منهُمْ قضاءٌ مقدَّرُ

وقد أجاب ابنُ الأبّار عن تلك الرسالة برسالةٍ أخرى مماثلة ، ووجّهها إلى صديقه ابن عميرة ومن فصول هذه الرسالة :

« . . . ثم لم يلبث داء عقرها أن دبّ الى جزيرة شقرها ، فأَمَرَّ عذبها النمير ، وذوى غصنها النضير ، وخرست حمائم أدواحِها ، وركدت نسائم أرواحها . . . »[١٤٢] .

ولابي المطرف بن عميرة في رثاء جزيرة شقر شعر كثير يكشف في معظمه عن حزن وحنين وتشوق وحسرة ، فمن ذلك قوله من قصيدة كتب بها الى صديقه أبي عبد الله بن محمد بن الجنّان المرسي :[١٤٣]

تَذَكَّرَ عَهْدَ الشرقِ والشرْقُ شاسِع
وذابَ أسىً للبرْقِ والبرقُ لامِع
واتبع ذِكْرَ الجِزْعِ أنّةَ مُوجَعٍ
له أبدا قلبٌ على الجِزْعِ جازِعُ

(١٤٢) الروض المعطار ص ١٠٠ ؛ نفح الطيب ٤/٤٩٨ .
(١٤٣) الذيل والتكملة /السفر الاول/ القسم الاول /ص ١٧٣ ؛ الروض المعطار ص ٣٥٠ .

كفى حَزَناً نأْيٌ عن الأهْلِ بعدما
نأيْنا عن الأوْطانِ فهيَ بَلاقِعُ
نوى غربةٍ حتى بمنزِلِ غُرْبةٍ
لقد صَنَعَ البينُ الذي هُوَ صانِعُ
أحِنُّ إلى أرضٍ تقادَمَ عهدُها
ومِنْ دونها أيْدي الخطوبِ المَوانِعُ
وكيفَ بشُقْرٍ أو بزُرْقَةِ مائِهِ
وفيهِ لشُقْرٍ أو لزُرْقٍ مَشارِعُ*

وله أيضا قصيدة أخرى يصف فيها حال جزيرة شقر بعد سقوطها . يقول في أبيات منها :(١٤٤)

وعاد قلبي من شَرْقِ أندلسٍ
عيدُ أسىً فتَّهُ وما فَتَر
فأيْنَ منّا منازلٌ عَصَفَتْ
ريحٌ عليها من العِدا صَرْصَر
ودونَ شُقْرٍ ودونَ زُرْقَتِهِ
أزرقُ يَحْكي قناه أو أشْقَر
والرومُ حربٌ لنا وهم وَشَلٌ
سالمه الوارِدون فاسْتَبْحَر
إنّا لَنَرْجو للدهرِ فيئة مَنْ
أنابَ ممّا جناه وآسْتَغْفَر
ونرقُبُ الكرَّةَ التي أبَداً
بها على الرُّومِ لم نَزَلْ نُخْبَر

(*) الشقر والزرق في الشطر الثاني من البيت الاخير اشارة الى الاراغونيين .

(١٤٤) الروض المعطار ص ٣٥٠ ، أبو المطرف بن عميرة حياته وأدبه ص ٢٣٢ نقلا عن رسائل أبي المطرف المخطوطة .

ومثلما يقوم رثاء الاشخاص على ذكر محاسنهم ومآثرهم ، فكذلك يشتمل رثاء المدن على ذكر محاسن المدينة التي تؤول الى السقوط ، ولذلك نجد جميع النصوص الشعرية والنثرية التي قيلت في رثاء جزيرة شقر ، حافلة بوصف محاسن تلك الجزيرة ومعالمها وبخاصة وصف طبيعتها الجميلة وما اشتملت عليه من أنهار لألاءة ونسائم عطرة ومنازل كانت مربعا للهو والانطلاق ، وحدائق زاخرة بالورود والرياحين ، وبطاح كانت ميدانا للصيد والقنص ، وحمائم وطيور لا تكف عن الغناء والطرب ، ولا يخلو نصٌّ من هذه النصوص من مقارنة بين حال الجزيرة قبل سقوطها وحالها بعد السقوط ، أو مقارنة بين حال أهلها قبل رحيلهم عنها وبعد الرحيل ، مثلما لا تخلو هذه النصوص من وصف ما يحس به أصحابها من ألم وأسى لما أصاب الجزيرة ومن وجد وشوق لأيّامها الخوالي .

* * *

= خاتمـــــــة =

تلك هي جزيرة شقر الاندلسية ، كانت موضع اعجاب الجغرافيين ، ومستراح المتنزهين ، ومحطّ رحال المصطافين والمتربعين ، ومتعلّق قلوب الشعراء والادباء من أبنائها المخلصين ، وموضوع كثير من القصائد ، كانت ميدان صراع بين الاسبان والمسلمين ، وكان في نهرها مجال رحب للنزهة وصيد الاسماك ، وكان لشواطئها جمال بارع ، ولبساتينها سحر فائق يجذب إليه عشاق الحياة حيث يختلط الحب بالشعر والنسائم وتغريد الطيور ، وكانت بواديها مكانا لرحلات الصيد . . . وكانت طبيعتها من أجمل ما وُهِبَ لأرض الاندلس ، مما جعل أبناءها يتعلقون بها ويهيمون بمحاسنها ، ويرونها جنة الخلد ، فخلدوها في ذكرياتهم وفي أدبهم الذي رقّ برقة أهل تلك الجزيرة وطبيعتها .

وفي جزيرة شقر اليوم من آثار المسلمين بقايا حصن قديم فقط ، لكنها لم تزل من أجمل بقاع اسبانيا ويزرع فيها البرتقال والنخيل والأرزّ وغيرها ، ويبلغ عدد سكانها حسب احصائية ١٩٨٥ واحدا وأربعين ألفا .

غير أن واحدا من فرعي نهر شقر المحيطين بالجزيرة هو في هذه الايام نهر جاف ، وتسقى مزروعاتها بقناة يعود تاريخها الى القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي .